البـاب الثالـث

مذكرات عريان يوسف سعد

obeikan

obeikan

(١)

عريان يوسف سعد . . اسم نادر المثال بين رموز الوطنية، نشرت «دار الشروق» مذكراته فى ٢٠٠٧ مكتفية فيها بحديثه بدوره فى محاولة اغتيال يوسف وهبة، دون أن تتطرق المذكرات بالتفصيل إلى ما نعرفه عن نشاطه الفدائى من مذكرات زميله سيد باشا التى تناولناها فى الباب الثانى من كتابنا هذا، ولا إلى تقييم حياته على نحو متميز على نحو ما رأينا فى حديث إبراهيم عبد الهادى عنه فى الباب الأول من كتابنا هذا، ولا إلى ما أورده مصطفى أمين فى الكتاب الممنوع عن حياته السياسية بعد هذا، ودون أن تتطرق إلى رواية أنه عرضت عليه الوزارة فى عهد إسماعيل صدقى فلم يستجب للتعاون مع صدقى، ولا إلى أنه كان من نوادر السياسيين المصريين الذين طالبوا بقبول قرار تقسيم فلسطين.

ولعل القارئ إذا ما كان قد طالع البابين الأولين من هذا الكتاب يدرك مدى فظلم الذى حاق بعريان يوسف سعد بعدما نشرت مذكراته على هذا النحو الذى نشرت به المذكرات فى «دار الشروق».

(٢)

ولا بد لنا قبل أن نمضى فى مدارسة هذه المذكرات من الإشارة إلى أنه من العجيب أن دار الشروق أثبتت على غلاف المذكرات أنها تتضمن حديث عريان عن جماعة «اليد السوداء»، ومع أن عريان يوسف سعد يشير إلى علاقته بجماعة تحمل هذا الاسم، فإن

أقرب زملاء عريان يوسف سعد إلى نفسه، وإلى مشواره الفدائى، وهو سيد باشا، كان حريصًا فى مذكراته على أن ينفى وجود هذه الجماعة من الأساس.

ومع هذا فإن فى مذكرات عريان يوسف التى بين أيدينا فقرة عابرة ووحيدة عن بحثه هو نفسه عن جمعية «اليد السوداء»، واستنتاجه، غير القاطع، أن أحمد عبد الحى كيرة زميله فى الطب كان هو المسئول عنها:

«وأيقنت أن لليد السوداء وجودًا، وأنها ليست من نسج الخيال، ولكن السبيل إلى الانضمام إليها مازال مجهولاً».

«لقد أنكر كيرة كل صلة بالشاب صاحب القنبلة، مع أن الشاب قرر أنه هو الذى سلمها له، وهو الذى علمه كيفية إلقائها».

«فلو تقدمت لكيرة وطلبت إليه الانضمام إلى الجماعة لدفعه حذره وحرصه إلى سوء الظن بى، وإذاً فليست هذه بالطريق».

(٣)

لمعت شهرة عريان يوسف فى الوجدان الشعبى منذ عرفت الجماهير أنه هو ذلك الفدائى الذى ألقى على سيارة دولة رئيس الوزراء فى ذلك العهد (يوسف وهبة باشا) قنبلتين لإرهابه حتى يستقيل فتبقى البلاد بدون وزارة فى أثناء وجود لجنة ملنر فيها، لتتم بذلك مقاطعة اللجنة.

وحوكم عريان يوسف سعد أمام محكمة عسكرية إنجليزية عليا، وحكم عليه بالأشغال الشاقة عشرة أعوام، قضى منها أكثر من أربع سنوات فى ليمان طرة، حتى أفرج عنه فى عهد وزارة سعد باشا زغلول فى فبراير ١٩٢٤.

ولد عريان يوسف سعد فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٨٩٩ فى ميت محسن، كان والده يوسف سعد بك هو ناظر الوقف القبطى فى ميت غمر، وكان ترتيبه السادس بين إخوته الاثنى عشر، وقد نشأ وتربى فى عزبتهم بميت محسن بالقرب من ميت غمر، التى ظل مقيمًا فيها إلى أن جاء إلى القاهرة والتحق بكلية الطب جامعة

فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، وفى عام ١٩١٩ كان فى السنة الثانية بمدرسة الطب عندما بدأ نشاطه الفدائى.

عند خروجه من سجن طرة فى عام ١٩٢٣ لم يتمكن من العودة إلى مدرسة الطب لاستئناف تعليمه بسبب نشاطه السياسى السابق، وهكذا عين موظفا فى مجلس الشيوخ وقد ظل يعمل به حتى الخمسينيات عندما افتتحت جامعة الدول العربية أول مكتب لمقاطعة إسرائيل فى دمشق، وحينذاك انتقل إلى مكتب دمشق، الذى عمل فيه حتى عام ١٩٥٧، ثم عاد إلى القاهرة ليستمر فى العمل فى جامعة الدول العربية.

وفى عام ١٩٥١، وقبل سفره إلى دمشق، حصل على درجة البكوية، وبعد عام ١٩٥٧ دخل فى مشروع تجارى لإنتاج الورق وتعاقدت معه الشركة الشرقية للدخان، وشركات أخرى.

(٤)

كان عريان سعد، فيما روته أسرته فى التعريف به، بطلاً رياضيًا محنكًا، وكان يحتفظ بمركب شراعى، وكان بحارًا ماهرًا، وكان يمارس رياضة الكرة الطبية ويسير مسافات طويلة، حتى إنه كان يسير من مصر الجديدة إلى وسط البلد بشكل منتظم، ومن القاهرة إلى الإسكندرية كل صيف (كى يلحق بزوجته وابنته فى أثناء إجازة الصيف)، ودرس اليوجا، وهو واحد من أوائل مَنْ أدخلوا ممارستها إلى مصر، وترجم كتاب «فلسفة اليوجا»، وكتب «تمرينات اليوجا»، وفى هذا الكتاب صور له فى أوضاع مختلفة.

كان عريان سعد كذلك قارئًا نهمًا وكاتبًا، وتنوعت قراءاته فى الفلسفة، والدين والسياسة والأدب، وكتب فى العديد من المجلات، منها «مجلتى» و«مجلة السجون»، وكتب سلسلة من المقالات فى «مجلة الشئون الاجتماعية»، وقد تناول فى كتاباته موضوعات كانت له خبرة بها مثل: السجن، والفلاح، وملابس النساء، والتشريع، والتعليم، والمشروعات الحرة مقابل الوظيفة الحكومية، والرأى الشخصى مقابل الرأى العام، والشرق والغرب، والتعامل مع الأمية، والإنتاج الزراعى فى مصر، والتعمير، والأبوة، والأمومة، والزواج.

ترجم عريان يوسف سعد بعض الأعمال الأدبية، منها «كيم» لروديارد كيبلنج، و«جزيرة الكنز» لروبرت لويس ستيفنسون.

(٥)

وعلى عادة الصحافة الوطنية الحفية بتسجيل السبق إلى المجد فى تلك الحقبة الليبرالية التى عاش عريان يوسف سعد فيها شبابه، فقد نجحت مجلة «مجلتى» فى أن تدعوه إلى كتابة مذكراته عن فترة السجن وقدمت المجلة لنشر هذه الحلقات فقالت:

«. . . وقد طلبنا إليه أن يحدث قراء «مجلتى» عن مدة إقامته فى ذلك السجن، وكيف تحمل العيش فيه بعد الرخاء والنعمة، فوعدنا وبر بوعده».

«كتب تباعا حلقات عن دخوله الليمان، وطريقة معيشته فيه، وحياة المسجونين والسجانين، وهو فى كل مقالة منها يصور لنا حلقة فريدة من تلك الحلقات التى نجهلها ولم يسبق تصويرها بهذا الأسلوب الجذاب، وتمثل كل حلقة لوحة من لوحات توالى نشرها «مجلتى»، فتسجل بذلك وثائق نادرة فى حياتنا القومية».

(٦)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن نثبت ما تحدث به عريان يوسف سعد عن إيمانه بالدور الذى لعبه العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩، وفى النجاح الذى أحرزته هذه الثورة، وهو يجيد تبرير السبب فى هذا الكفاح المسلح الذى قامت به مجموعة من الشبان الفدائيين فيشير إلى أنه بدأ كرد فعل على الاعتداءات الوحشية التى كانت قوات الجيش البريطانى تمارسها بين المدنيين:

«. . . ليست هذه المذكرات تاريخًا شاملاً لثورة مصر سنة ١٩١٩، إنما هى خيط من خيوط بردتها، أو طريق يخترق أحد شعابها، ولعله أخطر تلك الشعاب لأنه يمر بمنعطفات العنف فيها، فإذا كان المؤرخون قد قدموا تلك الثورة على أنها ثورة سلمية قام بها شعب أعزل ضد قوات الإمبراطورية البريطانية أوسع الإمبراطوريات التى شهدها العالم رقعة».

«فقد كان لهذه الثورة جانب عنيف، رأى بعض الثوار ألا محيص عن المغامرة فيه، ليردوا على وسائل العنف التى اتبعها الاستعمار فى قمع الثورة. أطلقت قوات بريطانيا النار على المظاهرات الشعبية التى كانت تتألف من مختلف طبقات الشعب بما فيها النساء المحجبات اللائى خرجن من خدورهن يشاركن الرجال فى المطالبة بالاستقلال. أقول: المحجبات لأن الحجاب كان لايزال مضروبًا على المرأة فى مصر لا يُرى وجهها خارج دارها إلا من وراء حجاب»،

«كانت القوات البريطانية تطلق النار على المظاهرات التى تسير هاتفة للاستقلال والحرية والوطن، ليسمع الأجانب صوتهم فيبلغوه لصحفهم وشعوبهم بعد أن حيل بين مصر حكومة وشعبًا، وبين مؤتمر فرساى الذى انعقد عقب الحرب العالمية الأولى، والذى ادعى الحلفاء أنه يسير طبقا للشروط التى أعلنها ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، التى كان أهمها حق الشعب فى تقرير المصير».

«وسقط فى شوارع القاهرة عشرات من الشهداء، كلما اجتمعت الجماهير لتشييع فريق إلى مثواهم الأخير، وجدت القوات البريطانية فى تلك الجموع الحاشدة هدفًا جديدا لإطلاق النار عليه».

. . . . . .

ويصل عريان يوسف سعد إلى تقديم استنتاجه المنطقى الذى يجعل حركة الفدائيين فى جوهرها الحقيقى بمثابة رد فعل طبيعى:

«. . . كان ذلك الدم الطاهر المهراق فى سبيل مصر هو الذى دفع فريقًا من الثوار إلى الجنوح إلى العنف، وإلى تدبير حوادث الاغتيال بالاعتداء على الوزراء، وأعوان الاستعمار الذين يناهضون الحركة الوطنية، ويحكمون البلاد على رغم إرادتها فى ظل الحماية، ثم رأوا ألا وسيلة لإقناع بريطانيا بحجة مصر إلا بأن تُكتب تلك الحجة بدماء المستعمر نفسه على أرض مصر، حتى يستطيع المستعمر أن يقرأ بوضوح وجلاء ما لم يقرأه مكتوبا بدماء الشهداء من المصريين».

(٧)

وهو يعتز بالإشارة إلى الدور الإيجابى الذى أسهم به الشعب المصرى فى دعم هذا التوجه الفدائى، وهو يعتبر مثل هذا الحديث بمثابة المدخل الجوهرى للحديث عن مذكراته، وهو يصل إلى أحكام تكاد تتوافق مع ما وصل إليه كل من إبراهيم عبد الهادى، وسيد باشا اللذين كانا على صلة صداقة به: «ولقد كان الشعب المصرى كلما انفجرت قنبلة من قنابل الفدائيين على وزير من وزراء الاستعمار، كان الشعب يهلل ويكبر حتى لو لم يصب الوزير بسوء».

«وكان الفدائيون فى نظر الشعب فى ذلك الوقت أبطالاً توزع صورهم، خفية كالمنشورات، إذا قبض عليهم، وكانت اعتداءاتهم على المستعمرين وأذنابهم تُروى كقصص الأبطال فى المنتديات».

«وكان العمال قد اختاروا أن يكون مجال عملهم الإنجليز دون المصريين، كلما أتيحت لهم الفرصة أطلقوا النار على جندى أو ضابط أو موظف مدنى إنجليزى، فكان الإنجليز يصبحون كل يوم على قتيل من جنودهم أو أكثر من قتيل ملقى فى شارع من شوارع القاهرة، ».

«وكلما أعلنت السلطات البريطانية عن آلاف الجنيهات لمن يقدم معلومات عن المعتدى، أو المعتدين، لا يتقدم بالمعلومات أحد، لا من الجمهور الذى كان يرى الحادث وهو يُرتكب جهارا فى وضح النهار، أو فى سواد الليل، ولا من المشتركين فيه على رغم فقرهم، وعلى رغم إعلان الأمان لمن يُبلغ واعتباره شاهد ملك».

(٨)

ولا يكف عريان يوسف سعد عن التعبير عن وجهة نظر شبيهة بوجهة نظر زميله سيد باشا فى أن هذا العنف الثورى هو الذى حقق الاستقلال، وأن تلك القنابل التى كان يلقيها طلبة المدارس بغير خبرة ولا سابق تمرين، وتلك الرصاصات التى كان الطلبة والعمال يطلقونها على المستعمرين وأذنابهم، هى المطرقة التى تفتت تحتها صلف البريطانيين فخضعوا لرجال السياسة فى بريطانيا، وأخلوا لهم سبيل العمل

فتفتق ذهنهم عن ذلك المخدر الفعال، تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب بريطانيا وحدها الذى أعلنت فيه إنهاء الحماية على مصر وإعلانها دولة مستقلة ذات سيادة».

(٩)

يفتتح عريان يوسف سعد مذكراته بوصف تفصيلى دقيق للإضراب الشهير الذى قام به الطلاب ومراحل هذا الإضراب وملامحه، حتى مروا على مدرسة الطب التى كان هو أحد طلابها حيث تمكن طلابها من الهجوم على العميد الإنجليزى كيتنج:

«... لقد قرر طلبة الحقوق الإضراب وامتنعوا عن تلقى الدروس، وأضرب طلبة المدارس الأخرى جميعًا عن حضور المحاضرات، ولكن ما فائدة الإضراب والبقاء داخل المدارس؟! رسول أمين يأتى إلى مدرسة الطب على دراجته مسرعًا يلهث، لقد قرر طلبة الحقوق أن يخرجوا فى موكب فيمروا بالمدارس الأخرى، ثم يتوجه الجميع إلى قنصليات الدول الأجنبية ليسلموا القناصل مذكرات الاحتجاج على القبض على سعد وزملائه ليبلغوه بدورهم إلى دولهم، فلم تكن للدول فى مصر سفراء ولا سفارات لأنها كانت محمية بريطانية».

«ويصل رسول آخر على دراجة، لقد خرجت مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة)، وخرجت مدرسة الزراعة، وهم جميعًا فى طريقهم إلى مدرسة الطب».

«ويدوى فى الآذان صوت لا عهد للآذان به، صوت ينطلق من مئات الحناجر الفتية القوية: لتحيا مصر حرة! ليحيا الاستقلال! ليحيا الوطن! ليحا سعد!».

«ويقف شعر الرأس، ويغلى الدم فإذا هو داخل الجسم كأنه سيل من نار».

«ويقف دكتور كيتنج ناظر مستشفى قصر العينى ومدير المدارس الطبية (كما كان يلقب نفسه، والمدارس الطبية هى مدرسة الطب، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة الحكيمات والممرضات)، يقف على شرفة المدرسة يحول بين الطلبة وفناء المدرسة الذى أوصد بابه من دون طلبة المدارس العليا، وكان لكيتنج هذا فى قلوب الطلبة والمدرسين

هيبة شديدة، فقد كان الرجل حاكما بأمره للمدرسة، يفصل مَنْ يشاء منها متى شاء، ولا معقب لأمره، ويضع للمدرسة اللوائح التى يرضاها ولا شأن لأحد بها».

«وهتف طلبة المدارس العليا لمصر، وأعقبوا هذا بالهتاف لطلبة الطب: لتحيا مصر حرة! ليحيا الاستقلال! ليحيا طلبة الطب! ولكن الوقفة تطول لا أقول: دقائق، أو ثوانى، إنما طالت الوقفة كأنها دهر».

«كيتنج يحدق النظر فى وجوه الطلبة، والطلبة يتحاشون نظرته، وهم ينصتون إلى نداء الحرية الصادر من قلوب زملائهم خارج السور».

«ويهتف هاتف فى الخارج: ليسقط طلبة الطب!!».

«ويخرج من صفوف طلبة الطب طالب يقذف فى وجه كيتنج بحافظة كتبه، ويدفعه فسقط الرجل على السلم، ويندفع الطلبة راكضين من حوله وفوقه فيفتحون الباب ويندفعون إلى زملائهم خارج السور، ويهتف الطلبة الذين فى الشارع: ليحيا طلبة الطب! ويهتف طلبة الطب ويهتف الجميع: لتحيا مصر حرة! ليحيا سعد! ليسقط الاستعمار! لتسقط الحماية!».

(١٠)

ويجيد عريان يوسف سعد وصف النجاح الذى حققه الإضراب باستمراره فى ذروته، وضمه لعناصر أخرى متتابعة من المدارس العليا المختلفة، وانضمام مدرسة التجارة العليا، ثم الوصول إلى قسم السيدة زينب ثم إلى مقر مديرية الأمن:

«ويسير الحشد الملتهب بنار الوطنية والشباب فى شارع قصر العينى قاصدين مدرسة التجارة العليا، وكانت تشغل بناء فى شارع المبتديان قريبًا من سكة حديد حلوان، وكانت على تقاطع الشوارع الرئيسية مع سكة حديد حلوان بوابات من الحديد تتحرك على عجل يسير على قضبان حديدية موازية لسكة الحديد تغلق الشارع من جانبى سكة الحديد عند مرور القطارات، وكانت قطارات بخارية تجر القاطرة من أربع عربات إلى ست حسب ضغط العمل كل نصف ساعة أو كل ساعة».

«وعند وصول الطلبة أغلق البوليس البوابات الحديدية ليغلقوا شارع المبتديان فى وجه الطلبة، ووقف أمام البوابات وخلفها جنود البوليس السوارى والبيادة، فى لغة اليوم الفرسان والمشاة».

«ولكن الطلبة اندفعوا يتسلقون البوابات، ويقفزون من فوقها إلى الجانب الآخر، فهاجمهم رجال البوليس وهم يلوحون بالعصى الغليظة التى يتسلح بها المشاة، وبالسيوف التى يتسلح بها الفرسان، ولكن لم يضرب جندى واحد طالبا، لا بالعصى، ولا بالسيوف، فقد كانت الوطنية تغلى فى صدور رجال البوليس كما كانت تغلى فى صدور الطلبة، ولكن الضباط الإنجليز، وكان بعضهم يركب الموتوسيكلات، والبعض الآخر يركب الخيل، كانوا يصدرون الأوامر إلى رجال البوليس بالهجوم على الطلبة لتفريقهم، واندفع الخيالة بخيلهم يقتحمون جموع الطلبة، فصمدوا للخيل تثب عليهم تضرب بسنابكها وحوافرها الهواء حول رءوس الطلبة، فلا يجد الطلبة وسيلة للدفاع إلا جذب أعنة الخيل فترتد على أعقابها، وقد سقط بعضها على ظهرها فأصيبت وأصيب ركابها».

«وخلال هذا الاشتباك الذى استمات فيه الطلبة فلم يتزحزحوا، لجأ قومندان قوة البوليس إلى إصدار الأمر للجنود، مشاة وركبانا، باقتياد الحشد كله إلى قسم السيدة زينب أقرب أقسام البوليس إلى مكان الصدام حتى يجدوا فرصة للاتصال برؤسائهم وتلقى أوامرهم إزاء هذا الموقف الذى لا عهد للبوليس بمثله من قبل، وكان فى نهاية شارع المبتديان والتقائه بشارع خيرت مبان أزيلت لتوسيع ميدان السيدة، وكانت بين شارع الخليج والجانب الذى تقع عليه المدرسة السنية مبان تحصر بينها وبين ذلك الجانب شارعا ضيقا اسمه شارع الكومى، كان على أحد جانبيه المحلات نفسها الموجودة الآن من مطاعم، وفطاطرى، وكشرى، وعلى الجانب الآخر الذى هدمه التنظيم محلات تجارية لمختلف السلع، واخترق الموكب شارع الكومى الضيق، وتساءل التجار: حد مات؟ تلميذ مات؟ ولا أستاذ؟».

«وإذاً فإن الناس خالو الذهن.. وهتف الطلبة:

«ليحيا الاستقلال! لتحيا مصر حرة! لتسقط الحماية! ليحيا سعد!».

«الله!! اقفل ياواد دول عايزين يطلعوا الإنجليز من مصر!».

«وأغلق التجار محلاتهم وانضموا بعمالهم إلى الطلبة، ولكن الأوامر صدرت إلى رجال البوليس من قادتهم الإنجليز بتفريق غير الطلبة لحصر العدد فى أقل عدد ممكن».

«وأقبلنا على قسم السيدة هاتفين، والشعب من خارج نطاق رجال البوليس ركبانا ومشاة يردد الهتاف، وكان قسم السيدة فى ميدان صغير جداً لا نسبة بينه وبين الميدان الفسيح الحالى، وكانت فيه نهاية عدد من خطوط الترام».

(١١)

ويروى عريان يوسف سعد تفصيلات مهمة عن حوار مأمور قسم السيدة زينب الصاغ موسى صبرى (ولا يعجبن القارئ من اسمه) مع جموع الطلاب:

«. . . ودخلنا قسم البوليس، وكنا أكثر من خمسمائة طالب فضاق القسم وردهاته بنا فأدخلونا قاعة المحكمة فملأناها كلها، منصة القضاة، وأماكن المحامين والمتقاضين، وبقى الجزء الأكبر منا أمام القسم والهتاف للاستقلال يدوى فى داخل القسم، ويردده الذين بقوا خارجه».

«ودخل مأمور القسم الصاغ موسى صبرى إلى المحكمة بعد جهد كبير وطالب بالإنصات إليه فأنصتنا».

«وكان كلامه كله نصحًا لنا بالانصراف فى هدوء، والعودة إلى مدارسنا حتى لا نتعرض للعقوبات التى يفرضها الحكم العسكرى البريطانى الذى يمنع تجمهر أكثر من خمسة أشخاص، وإلا اعتبر عملهم جريمة عسكرية عقوبتها الأشغال الشاقة طبقًا لمنشورات الحاكم العسكرى قائد القوات البريطانية فى مصر، تلك المنشورات التى كانت معلقة على الجدران فى كل مكان».

«وكان ردنا على نصائحه الهتاف لسعد وللاستقلال وسقوط الحماية».

«وخرج الرجل ليعود قائلا: إما أن ننصرف وإلا فإن قوات إضافية قد وصلت لاقتيادنا إلى المحافظة فى ميدان باب الخلق».

«وتدافعنا إلى خارج القسم، فما أن وقفنا على جانب سلمه العريض (وهو لم يتغير إلى اليوم، اللهم إلا أن الميدان الذى خرجنا لنطل عليه لم يكن عرضه يزيد على خمسين شبرًا)، حتى وجدنا نطاقًا من الجنود مشاة وركبانًا يحيطون بالميدان، ومن خلفهم الشعب يستقبلنا بالتصفيق والهتاف: ليحيا الطلبة! لتحيا الوطنية!».

«ونزلنا إلى الميدان وسرنا منه إلى شارع الخليج المصرى، وكان شارعا ضيقا لا يتسع إلا لشريطى الترام: شريط للذاهب، وشريط للعائد، وليس بين الشريط والبيوت سوى رصيف ضيق، أزيلت المبانى ووسع الشارع، وأدمج فى الحارات الموازية لشارع الخليج باسم درب الجماميز، ثم شارع جامع البنات، ثم شارع بين الصورين، وضم ذلك كله للشارع الفسيح، شارع بورسعيد، وقد حاول الأهالى من أولاد البلد لابسى اللاسات والطواقى والعمائم الانضمام للمظاهرة، ولكن أوامر المحافظ، أو الحكمدار الإنجليزى على الأصح، كانت تسوق الطلبة المتظاهرين وحدهم إلى المحافظة ومنع دخول غير الطلبة فى المظاهرة، يهدفون بذلك إلى حصر المتظاهرين فى أقل عدد ممكن حتى يمكن محاكمتهم، لأن محاكمة الشعب كله عمل مستحيل».

(١٢)

ويفيض يوسف عريان سعد فى تصوير التعاطف الشعبى الذى أحاط بمظاهرات الطلبة، وهو تعاطف ينم بوضوح عن إيمان الشعب بهذه الحركة الوطنية وبما تمثله من هدف نبيل:

«... وسرنا فى شارع الخليج الضيق تطل من نوافذه السيدات والآنسات ينظرن إلى هذا المشهد الذى لا عهد للقاهرة ولا لغيرها من مدن مصر بمثله، ويرتفع الهتاف للاستقلال والحرية وسعد بدون انقطاع، ويحيط المظاهرة من الجانبين جنود البوليس يمر بهم على طول الطريق ضباط إنجليز يركبون الموتوسيكلات، ولكن الهتاف للحرية والاستقلال لا ينقطع، وإذا أصوات جديدة تشترك فى هذا الجو الصاخب المفعم بالشعور الوطنى من شباب غير عابئ بما يجره عمله هذا من عقوبات مخالفة منشورات الحاكم العسكرى الإنجليزى».

«أصوات تصاعدت من شرفات المنازل ونوافذها التى امتلأت بوجوه الجنس الناعم، تلك الوجوه التى ما كانت تظهر لأحد غير أهلها، كان الحجاب مازال مضروبا على المرأة المصرية لا تخرج إلا وعلى وجهها نقاب، حتى طالبات المدرسة السنية كن محجبات».

«اخترقت زغاريد النساء هتاف الطلبة فعلت عليه، وكأنها أصوات الملائكة نزلت من السماء لتشارك شباب مصر فى هتافه مطالبًا بحقه، وحق بلاده فى الحرية».

«وصمت الذين يقودون الهتاف لحظة ملأت الزغاريد فيها الجو، ثم عادوا يهتفون».

«وكلما قطعنا جزءًا من الطريق، وانتقلنا من بين مجموعة من المساكن إلى مجموعة أخرى ارتفعت من المساكن التى نمر بينها على الجانبين زغاريد كأجراس الفضة تبعث فى نفوس الشباب روح المغامرة، واستصغار المخاطر، حتى وصلنا تقاطع شارع أحمد ولى بعابدين مع شارع الخليج، وكانت هناك مدارس ثانوية تدعى مدارس الرشاد اندفع تلاميذها من باب المدرسة لينضموا للمظاهرة، ولكن جنود البوليس حاولوا منعهم فاقتحموا صفوفهم، وواصلت المظاهرة السير حتى باب الخلق حيث كانت المحافظة، فإذا أمام بابها الضخم عدد كبير من جنود البوليس، ودخلت مقدمة المظاهرة إلى فناء المحافظة، ولم يدخل منها أكثر من مائة وخمسين طالبًا، وإذا الباب الخارجى يقفل ليحول دون دخول بقية المتظاهرين الذين زاد عددهم فى أثناء السير من قسم السيدة إلى باب الخلق، ولست أدرى كم كان عددهم بعد أن انضم الكثيرون إلى طلبة المدارس العليا الذين تخطوا الحواجز، وانضموا لزملائهم بعد أن حيل بينهم عند بوابة سكة حديد حلوان أولا، وعند قسم السيدة زينب ثانيًا».

(١٣)

ويروى عريان يوسف سعد تفاصيل اعتقاله هو وزملائه فى ذلك اليوم، مشيرًا بكل وضوح إلى طبيعة الممارسات التعسفية للبريطانيين فى مواجهة مثل هذه الحركات الوطنية ومحاولة قمعها بكل قسوة، وإن ظل هذا فى إطار قواعد النظام:

«. . . وقفنا فى فناء المحافظة ولم يكن فسيحًا، فامتلأ بالمائة والخمسين الذين أقفل بدخولهم الباب الكبير، وقفنا ووقف على الشرفة المطلة على الفناء الحكمدار ومساعدوه، وكلهم إنجليز، ولكن بالطرابيش، وملابس ضباط البوليس المصرى».

«ووقف أمامنا ضابط كنت أراه كثير التقدم والتأخر على موتوسيكله طوال الرحلة من السيدة زينب إلى باب الخلق، وتقدم إلى حيث يطل عليه الحكمدار من فوق الشرفة وقال له بالإنجليزية:

«أنا أعرف سبعة أوجه كانوا هم قادة المتظاهرين، وموجهى الهتافات».

«فأمره الحكمدار بالتقاطهم ووضعهم فى التخشيبة».

. . . . . .

«وبدأ الضابط ينتقى بعض الطلبة، ولكنه لم يكتف بسبعة وإنما قبض على أربعين كنت أنا من بينهم، وكان كلما اختار واحدًا يمسكه من كرافتته ويجذبه بعنف فيتلقفه عدد من الجنود ويحملونه إلى البدروم ـ التخشيبة».

«وكنا قد بدأنا السير بالمظاهرة من مدرسة الطب حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا، فقد أخذت المشاورات من مدرسة الحقوق وقتا، وأخذ السير من الجيزة إلى قصر العينى والانتظار فى قسم السيدة زينب، والسير إلى باب الخلق وقتا أشرفنا بعده على المساء، فلما دخلنا التخشيبة كان الظلام قد أطبق».

«ووقفنا حتى إذا أخذ منا التعب مأخذه بدأنا نجلس على الإسفلت، وما باليد حيلة، وفُتح الباب نحو الثامنة مساء ودخل جاويشان أحدهما فى يده فانوس والآخر فى يده ورق وقلم وطلب أسماءنا ليكتبها».

«وصاح صائح: أسماء مزيفة! ولكن طلبة الحقوق تداولوا بسرعة وقالوا: إن هذا يكون تزويرًا فى أوراق رسمية، فليذكر كل واحد اسمه وما يطلبه منه من بيانات مطابقة للواقع، وكتبوا أسماءنا وكنا لم نذق طعامًا طوال اليوم، ومنا مَنْ لم يتناول طعام إفطاره، فطلبنا طعاما ولو على حسابنا، ولكن لم نظفر بشىء».

«بعد قليل نودى على طالب منا كان من طلبة الهندسة، وكان أبوه رئيس وزراء

سابق، فخرج ولم يعد، ونودى على اثنين آخرين ولكنهما عادا بعد قليل، فقد رفضا الإفراج عنهما إن لم يفرج عن سائر زملائهما».

(١٤)

وتحتفظ ذاكرة عريان يوسف سعد بتفصيلات عن «المعتقل المؤقت» الذى قررت السلطات إيداعهم فيه، وقد كان مسجداً أثريًا يخلو من الإضاءة، فإذا هم يستعينون بعيدان الكبريت حتى يرى بعضهم بعضًا:

«وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فُتح الباب ونودى على كل منا والمنادى عليه يخرج، حتى جاء دورى فنوديت وخرجت، وإذا فى فناء المحافظة سيارة نقل من سيارات الجيش البريطانى وحول سورها جنود إنجليز، وأُمرت أن أقفز إلى السيارة فقفزت، وإذا جندى إنجليزى يقول لى بالإنجليزية: اجلس! ووجدت الزملاء جلوسًا على أرض السيارة فجلست، وقال جندى عندما بدأت السيارة تتحرك: إن النار ستطلق على أى واحد يصدر منه هتاف أو يحاول الوقوف».

«وانطلقت السيارة فى ظلام دامس، فقد حطم الشعب بعد دخولنا التخشيبة مركبات الترام، وفوانيس النور فى الشوارع، وهكذا باتت المدينة فى ظلام دامس».

«وبدأت السيارة تسير فى طريق مرتفع قليلاً قليلاً، وشعرنا بذلك من ميلها فأدركنا أنها تصعد بنا إلى القلعة، وكانت فى يد الجيش البريطانى».

«وأخيرًا وقفت السيارة وفُتح سورها الخلفى وأُمرنا بالنزول، فقفزنا منها وإذا بنا أمام بناء ضخم فيه باب أمرنا أن ندخله، وبعد دخوله أقفل لينفتح بعد قليل ليستقبل فوجا آخر من الزملاء، ولم نجسر على الابتعاد عن الباب إلا بالقدر الذى يترك مكانًا للقادمين الجدد، وتوالى وصول الزملاء، وكنا نشعل أعواد الكبريت ليتعرف بعضنا إلى بعض حتى بدأت أضواء الفجر تظهر المكان الذى وضعنا فيه، فإذا هو مسجد أثرى خرب فسيح، وأصبحنا فإذا كل المائة والخمسين طالبًا الذين أغلق بعد دخولهم باب المحافظة قد وصلوا».

«أين كانوا؟».

«ضاقت التخشيبة بهم فأخذوهم فى لوريات إلى أقسام البوليس حتى الساعات الأخيرة من الليل فنقلوا إلى القلعة حيث بتنا فى العراء، فالمسجد كان معظم سقفه منزوعا، وأخذ الجوع والعطش بعد أربع وعشرين ساعة يتغلبان على قوة الشباب وجَلَدِه».

(١٥)

ويروى عريان يوسف سعد بعض الملامح التى فرضت نفسها على إدارة المعتقلين لشئون أنفسهم فى ظل هذه الظروف القاسية:

«وزاد عدد المعتقلين فى الجامع المهجور الخرب، فبلغ عددهم بعد بضعة أيام أربعمائة معتقل، كان حفظ النظام بينهم موكولا لطلبة المدارس العليا، فقد قامت مشاجرات بين العامة من المعتقلين، فقد اندس بينهم أنماط من الناس من جميع المستويات، وادعى بعضهم أن أشياء سرقت منهم، ولم يشأ الإنجليز أن يتدخلوا فى هذه الشئون، فاخترنا من طلبة الحقوق مَنْ يحققون وفوضناهم فى الفصل فى هذه القضايا، وأجمع المعتقلون على الرضا بحكمهم، وكان فى معظم الحالات لا يتعدى النصح بالصفح، وكان فى كل مرة يقبل ما يشيرون به على أطراف النزاع».

«وبعد عشرة أيام كانت حالتنا قد وصلت إلى درجة يرثى لها من سوء المظهر، لقذارة ملابسنا التى لم نغيرها طوال تلك المدة، وكان يعلوها التراب الذى يكسوا أرض المسجد، والذى كنا نجلس وننام عليه، وبدأت السلطات تتصرف فى أمرنا بعد أن حاول أهل المعتقلين معرفة ما آل إليه أمرهم بعد أن تغيبوا عن منازلهم، وسؤالهم فى أقسام البوليس عنهم فأحيلوا إلى المحافظة، ورأت المحافظة الإفراج عن المعتقلين، إذ أنهم لم يرتكبوا جريمة يمكن أن يحالوا بسببها إلى المحاكمة».

(١٦)

ويصل عريان يوسف سعد إلى لحظة خروجه من هذا المعتقل فيجيد تصوير المشاعر

الإنسانية والتعبير عنها بدقة شديدة، تعكس ما يعبر عن نفسية ثورى بدأ لتوه أولى خطواته فى سبيل الوطن، ومن الطريف أنه يعبر بدقة عن شعوره تجاه «منظره»، وكيف اختلف هذا الشعور بمجرد تحرره من المعتقل:

«وفى اليوم الثانى عشر جاء الضابط والمترجم، وإذا اسمى بين الذين ناداهم».

«كان أبى وأسرتى يقيمون فى ميت غمر، والطرق الحديدية قد قطعت، وعطل البريد والبرق بينها وبين القاهرة».

«ولكن، كما كان الشأن آنئذ، لابد لكل طالب لا يقيم أبوه فى القاهرة من شخص تلقبه وزارة المعارف «المراسل».

«وكان مراسلى زوج عمة لى يقيم فى شبرا، وكانت كل دفعة تخرج تعمل على الاتصال بأهل الباقين ليتوجهوا إلى المحافظة لتوقيع الضمان، والإفراج عن الطالب المعتقل».

«ودخلنا المحافظة فى ميدان باب الخلق، وأدخلنا عشرة عشرة إلى مكتب كان يدعى إليه الضامنون لنا فتقدم لهم ورقة الضمان يوقعونها، ونوقعها نحن بدورنا، وفيها أنهم يضمنون عدم الاشتراك فى أى مظاهرة، وأننا إذا قبض علينا فى أى مظاهرة حكم علينا بالإعدام رميًا بالرصاص، ووقعنا الأوراق وخرجنا».

«كنا فى المعتقل لا نخجل من منظرنا الزرى، ولا من لحانا التى طالت بعد أن بقيت اثنى عشر يومًا بغير حلاقة، ولا من الجاكتة والبنطلون (اللذين تشبعا) بالتراب، ولا من القميص الذى اسود لونه من العرق والتراب معًا».

«ولكن ما إن خرجنا من غرفة الضابط الذى وقعنا الأوراق أمامه، وعدنا إلى الجمهور، حتى بدأنا نخجل من هذا المنظر القبيح».

«ودعانى زوج عمتى للذهاب معه إلى منزله، فقلت له إن ثيابى فى الشقة التى أسكنها فى جنينة نميش (قاميش) مع زميلى فى مدرسة الطب، وهو لم يعتقل ولابد من أنه ينتظر عودتى، وتركته شاكرًا ضمانته لى، وذهبت إلى المسكن المتواضع فوجدت زميلى مكبا على كتبه، وكنا فى نفس الفرقة، فعانقنى فرحًا بعودتى وقال: إن

الشائعات عن مصير الطلبة الذين اعتقلوا يوم ٩ مارس، وكنا فى يوم ٢١ مارس يوم أفرج عنا، تؤكد أن أولئك الطلبة قد نفوا إلى مالطة هم الآخرون».

(١٧)

ويروى عريان يوسف سعد تجربته المثيرة حين حاول العودة (مستخفيا) إلى موطنه الأصلى ميت غمر بعد خروجه من هذا الاعتقال:

«. . . وكنت أعرف مساكن بعض طلبة ميت غمر، وكان منهم الأديب الكاتب المرحوم عبد الله حبيب، وكان فى مدرسة دار العلوم أو القضاء الشرعى، فذهبت إليه، وإذا به قد وضع قواعد خطة للهرب من القاهرة ليلاً، إذ أن السلطة العسكرية كانت قد حظرت الانتقال من القاهرة وإليها».

«وكان تنفيذ الخطة كما أعدها سيتم مساء ذلك اليوم، وكان علينا أن نلتقى فى روض الفرج بحقائبنا حيث اتفق مع صاحب سفينة شراعية من سفن النزهة على أن يحملنا على سفينته بعد منتصف الليل إلى القناطر الخيرية، وعند الفجر مقابل شىء من النقود يفتح لنا هويس الرياح التوفيقى، فإذا دخلنا أصبحنا فى مأمن من القبض علينا لأن نطاق الحظر ينتهى عند القناطر الخيرية».

«وحين أقبل الليل، وكانت القاهرة فى ظلام دامس بسبب تحطيم فوانيس الإضاءة فى الشوارع، نقل كل منا حقيبته إلى مسكن زميلنا عبد الله حبيب، ومن هناك ركبنا مع حقائبنا عربة نقل حملتنا إلى روض الفرج فى أكثر من ثلاث ساعات».

«وعند منتصف الليل أقلعت بنا السفينة، أو بالأصح القارب الشراعى، وكنا نحو عشرة تنتهى رحلة أبعدنا فى المنصورة، ورست أمام القناطر الخيرية عند منبع الرياح التوفيقى، وعند الفجر دخلنا الرياح، وبقينا بعد ذلك قليلاً فى المدينة، إذ اشترينا من سوقها بعض الطعام».

(١٨)

وينفرد عريان يوسف سعد بذكر أن ميت غمر كانت قد أعلنت استقلالها، وهو

خبر غير مشهور، فالمشهور هو أن المدينة المقابلة لها على النيل، وهى مدينة زفتى، أعلنت الجمهورية، لكن عريان يوسف سعد يحدثنا عن محاولة شبيهة قامت بها ميت غمر، وليس هناك ما يمنع من أن تكون حركة ميت غمر قد تمت على هذا النحو:

«. . . ووجدت ميت غمر قد أعلنت استقلالها، وألفت حكومة ونادت بالمرحوم أحمد بك عبده سلطانًا على ميت غمر، وكان طلبة المدارس العليا والثانوية الذين لم يعتقلوا والعمال يقومون بدور الحرس الوطنى، أما مأمور المركز وموظفوه فلزموا منازلهم».

«ولم يقع بالمدينة حادث اعتداء واحد، أو حادث سرقة خلال فترة الاستقلال التى دامت نحو أسبوعين».

«عندما وصلت السفينة فى الرياح التوفيقى إلى محطة فم الصافورية، وكان بين هذه المحطة وميت غمر نحو كيلومترين، وكانت ملتقى خطوط سكة حديد الدلتا من الزقازيق وبنها والمنصورة والسنبلاوين وميت غمر، وكانت فى ميت غمر ورش إصلاح القاطرات والمركبات، وقد تحول قسم من تلك الورش كان به مسبك لصهر الزهر والنحاس ومخرطة، تحول هذا القسم إلى الإنتاج الحربى للجيوش البريطانية فى الشرق الأوسط من أول حرب سنة ١٩١٤ (الحرب العالمية الأولى)، وكانت القنابل اليدوية تصنع فيه لكنها كانت تشحن بالمفرقعات فى مكان آخر، وكان فى هذه الورش نحو خمسمائة عامل بين براد، وخراط، وبرشمجى، وسباك، ونجار، ومنجد، أضربوا جميعًا عندما قامت الثورة، وعلى رغم تهديد المدير الإنجليزى لهم بالفصل فإنهم استمروا فى إضرابهم».

(١٩)

ويورد عريان يوسف سعد تفصيلات مهمة عن دوره فى تأجيج مظاهر الثورة ضد البريطانيين فى ميت غمر، ولا نقول فى إشعال الثورة، فقد وصل إلى ميت غمر بينما الثورة مشتعلة بالفعل، وهو يروى أنه خطب فى الكنيسة بعد شيخ الجامع وبعد راعى

الكنيسة، وأنه دعا إلى قطع السكة الحديد حتى لا يأتى البريطانيون إلى ميت غمر لتأديب أهلها، وأن دعوته لقيت قبولاً واسعًا حتى إن عمال الورش جاءوه فى منتصف الليل ودعوه إلى مشاركتهم فى تنفيذ هذه الخطوة التى دعا إليها:

«. . . وصادف يوم وصولى إلى ميت غمر أن حدد اليوم التالى للاجتماع فى الكنيسة، وخطب شيخ الجامع العمرى، وخطب القمص يوسف راعى كنيسة الأقباط بعد أن عانق شيخ الجامع».

«وما أن انتهى الخطيبان حتى رأيتنى أقفز إلى منصة الخطابة، وصفق الطلبة وهتفوا».

«وقلت للناس: إن طوافهم فى شوارع ميت غمر لا نتيجة له، وإن خطر الجنود البريطانيين واحتلالهم للبلدة غير بعيد، وإنهم إن جاءوا فسيكون مجيئهم بالقطارات، فيجب أن تتحول المظاهرات إلى عمل يحول دون قدوم الجنود الإنجليز، وذلك بقطع سكة الحديد».

«وصفق الجميع وتعالى الهتاف لمصر، ولسعد وللحرية، وانفض الاجتماع».

«وفى منتصف الليل أيقظنى أبى وكنت فى نوم عميق».

«قال: إن أمام البيت حشدًا يطلبك، وخرجت بملابس النوم، وإذا رجال يحملون على أكتافهم قطعًا من الحديد، وتقدم منى رجل من زعمائهم».

«قال: ألم تدع إلى قطع سكة الحديد فى خطبتك أمس؟».

«قلت: بلى».

«قال: نحن عمال الورش، وقد جئنا بالمفاتيح، والعُدد التى تستعمل فى تركيب القضبان ونزعها، وقد جئنا لتصحبنا فى هذا العمل الذى دعوتنا إليه!».

«قلت: بارك الله فيكم، ٥ دقائق أرتدى فيها ثيابى».

«وصعدت إلى غرفتى، وسألنى أبى: ماذا يريدون بك؟».

«قلت: إنهم عمال الورش، سأذهب معهم فى عمل لهم».

«قال: أى عمس فى هذا الليل؟!».

«قلت: سنخرج لنقطع سكة الحديد».

«ورأى أن لا مفر من خروجى فتركنى ودخل غرفته».

«وخرجت إلى الناس فسرت بهم إلى خارج المدينة، فلما قربنا من محطة سكة حديد الحكومة أرادوا أن يبدأ قطع السكة من عندها».

«قلت لهم ليس هذا هو الموضع، بل يجب أن نقطع السكة على بعد كبير من المدينة».

«وسرنا بجانب سكة الحديد حتى عبرنا الكوبرى الذى يمر من تحته الرياح التوفيقى، وواصلنا السير فى اتجاه الزقازيق، وكلما سرنا دقائق قال قائل: نقطع هنا، فأقول لهم: لا فإن هذا الموضع قريب».

«وسرنا ساعتين قطعنا فيهما نحو ثمانية كيلومترات، ولاحت من بعيد أضواء خافتة قال قائل: لقد اقتربنا من ميت القرشى».

«قلت: إذاً فابدأوا القطع من هنا».

«وفى دقائق كان كل مجموعة يعملون بمفاتيح فك المسامير التى تربط القضبان بالفلنكات، فلم يمض وقت طويل حتى انتزع أول قضيب وتصايح الرجال: «هيلاهوب! هيلاهوب!» وقذفوا بالقضيب فى الحقل المجاور».

«واستمر العمل واستمر نزع القضبان قضيبًا بعد آخر حتى بدأت خيوط الفجر وقد انتزعنا عددا من القضبان لا بأس به، وقررنا العودة، وقبل طلوع النهار كنا نائمين فى بيوتنا».

«وفى الليلة التالية خرجنا فى وقت مبكر من الليل وواصلنا فك القبضان فى نفس الموقع حتى اقتربنا من محطة ميت القرشى، وعدنا إلى ميت غمر قبل بزوغ الفجر».

(٢٠)

ويلخص عريان يوسف سعد نتائج حركتهم هذه على نحو ما حدثت، حيث

انقطعت السكة الحديد، وانتقم الإنجليز بإطلاق النار عشوائيًا على بعض المشاركين فى جنازة، وجاءت قوة بريطانية (من جنود نيوزيلنديين) لتسيطر على الموقف:

«. . . وعند الظهر جاء غفير من ميت القرشى ببلاغ للمركز يقول فيه إن قطارًا إنجليزيا مسلحا وقف أمام القرية بسبب قطع سكة الحديد».

«وكانت جنازة ميت فى طريقها خارج القرية إلى المقابر، ففتح عليها القطار المسلح المترااليوزات (المدافع الرشاشة) فقتل ثمانية عشر قتيلاً».

«واستقل طبيب المركز والمأمور عربة حتى ميت القرشى، فصرح الطبيب بدفن القتلى، ولم نخرج بعدها لقطع سكة الحديد».

. . . . . .

«وانتهى الاستقلال بوصول قوة السوارى النيوزيلنديين، فبمجرد وصولهم عاد المأمور إلى مكتبه، واختفى الحرس الوطنى، وكان على رأس القوة المستر شبرد مفتش وزارة الزراعة بالزقازيق، وكان هو الذى يوجه الكولونيل قائد الفرقة، وكان ذلك الشأن فى كل مكان احتلته القوات الإنجليزية. كان أكبر موظف إنجليزى فى المديرية أو بقربها يتولى الإشراف على قائد القوة».

(٢١)

ويشيد عريان يوسف سعد بالدور الوطنى للمأمور عمر وهبى، وهو واحد من رجال الأمن المصريين المتميزين لم يلق بعد حظه من التكريم:

«وطلب المستر شبرد من المأمور بيانًا بأسماء أعضاء الحكومة، فقد كان بعض الجواسيس من المتمصرين (قد) أبلغونا نبأ الحكومة والسلطان والحرس الوطنى».

«ولكن المأمور (عمر بك وهبى شقيق الدكتور سليمان عزمى باشا) نفى كل ما أبلغ إلى المستر شبرد وقال إنه مدين للأعيان الذين عاونوه على حفظ الأمن والنظام فى البندر».

«وأصر مستر شبرد على اعتقال محام وشاب من الطلبة بتهمة التحريض على المظاهرات، وكلف معاون البوليس بالقبض عليهما، وفعلا قبض عليهما وتم ترحيلهما

إلى معسكر الاحتلال الرئيسى بالزقازيق، وبعد نحو شهر عادا فلم يتقدم أحد بالشهادة ضدهما، ولم يحكم عليهما كما حكم على كثيرين من أهالى مديرية الشرقية بتهمة قطع سكة الحديد».

«وقد لقيت عمر بك مرة فقال لى ضاحكًا: إنه سوف يدفع ثمن رفضه تقديم السلطان وأعضاء وزارته لقوة الاحتلال، فإن مستر شبرد، بعد أن فشل فى إرغامه على تقديم تقرير باتهام الأعيان والطلبة والعمال باغتصاب السلطة منه، قال له: أنت مأمور زى الزفت!!».

(٢٢)

ويقدم عريان يوسف سعد نموذجًا لتعامل القوة الإنجليزية مع الأهالى، وحرص هذه القوة على الاحتياط لأى ثغرة يمكن للوطنيين أن يستغلوها فى إشعال الثورة مرة أخرى:

«. . . احتلت القوة الإنجليزية مبانى محطة سكة الحديد، وجعلتها مقرًا للكولونيل قائد القوة، ونصبت القوة مدافعها الرشاشة فوق مبنى المحطة، ونصبت خيامها فى مكان السوق بجوار المحطة».

«ومنع الخروج من المدينة أو الدخول إليها بالعربات إلا بتصريح من قائد القوة، وكان لابد لأصحاب الأراضى الذين يقيمون فى ميت غمر من الحصول على تصريح من القائد».

«وقمت مع نفر منهم بدور المترجم عندما ذهبوا للحصول على تصريح منه، ودار بينى وبينهم الحوار الآتى:

«قلت له: صباح الخير».

«قال: نعم، ماذا تريد؟».

«وأشار إلى الأعيان الذين صحبتهم، وقال: وماذا يريد هؤلاء؟».

«وكان بينهم أبى رحمه الله».

«قلت: هؤلاء مزارعون يقيمون فى المدن، وأرضهم فى القرى المجاورة، ويطلب كل منهم تصريحًا لعربته (التى تجرها الخيول، فلم يكن فى الريف سيارات)».

«فقال: يستطيعون أن يصلوا إلى أرضهم على الجمال!».

«قلت له: إنهم كما ترى رجال تقدموا فى السن، ولم يركب أحدهم جملاً فى حياته، وليس فى خروجهم إلى مزارعهم بعرباتهم أى خطر على الأمن».

«ورفض أن يصدر لهم تصاريح، وعادوا وعدت معهم، ولكن هذا الحظر لم يستمر طويلاً، فتركت الحرية لمن شاء أن يخرج بعربة».

(٢٣)

وننتقل مع عريان يوسف سعد إلى ما يرويه عن حوادث الاغتيالات التى قدر له أن يشترك فيها، أو أن يكون قريبًا منها.

ومن الملاحظ أنه حرص فى مذكراته على أن يركز حديثه على دوره الأشهر فى الاعتداء على يوسف وهبة، إلا أنه بدأ حديثه برواية ما يذكره عن محاولة اغتيال محمد سعيد باشا رئيس الوزراء، وعلى الرغم من أن حديث عريان يوسف سعد عن تفصيلات هذه المحاولة لا يقدم الأجواء ولا التفصيلات التى يقدمها حديث زميله سيد باشا فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الثانى من هذا الكتاب، فإن تصوير عريان يوسف سعد لبطولة أحمد عبد الحى كيرة وسيد باشا وذكائهما وحسن تصرفهما يتفوق بكثير على وصف سيد باشا نفسه.

ونحن نلاحظ أن عريان يوسف ينسب إلى ذكاء أحمد عبد الحى كيرة الفضل فى النجاة من الكمين الذى أعده البوليس السياسى الذى كان قد أوشك على الإيقاع بالفدائيين، وهو ما لم يصرح به سيد باشا على هذا النحو، وإن كان قدم رواية أخرى ذكرنا تفصيلاتها فى الباب الثانى من هذا الكتاب:

«. . . فى مقهى كان يشغل مكان العمارة المجاورة لفندق سمير أميس، ويطل على كوبرى الخديو إسماعيل (كوبرى قصر النيل حاليًا) جلس شاب، وقد وضع بجانبه لفافة».

«وعلى مقربة منه جلس بعض الرجال يتشاغلون بالحديث، ولكن أعينهم لا تكاد تنحرف عن ذلك الشاب إلا لتلقى نظرة سريعة على الكوبرى والشارع المتصل به».

«ومع أن الوقت كان صباحًا، وهو وقت يسير فيه الناس سراعًا إلى عملهم، فقد كان على الكوبرى وعلى جانبى الشارع رجال يسيرون قليلاً ثم يقفون لا يكاد الواحد منهم يغادر مكانه حتى يعود إليه».

«ولم يكن ذلك كله يستوقف نظر الرجل العادى الذى لا يعنيه إلا أن يصل إلى المكان الذى يقصده، أو الرجل الذى خرج للتنزه والرياضة، ولكن عين الحذر الذى يهم بأمر عظيم لابد من أن تدرك أن وجود أولئك الرجال لم يكن مصادفة، وأنهم وضعوا هناك لأمر ذى بال. . إنهم من البوليس الملكى».

«وطال جلوس الشاب فى المقهى حتى انتصفت الساعة العاشرة، ومرت سيارة يحرسها موتوسيكلان، وإذا الرجال الذين جلسوا حوله يحيطون به ثم يقبضون عليه ويتناول أحدهم اللفافة فى حذر ويخرج الجميع فيستقلون السيارات فلا يكادون يغادرون المقهى حتى ينصرف أولئك الذين كانوا يحومون على جانبى الطريق».

«حدث ذلك كله، ولكن أحدًا لم يدرك سره».

«وقُبض على زميل فى كلية الطب وأودع السجن، علمنا ذلك من زملائه فى السكن، ولكن الجرائد لم تشر إلى شىء من هذه الحوادث».

«ذلك الزميل هو المرحوم أحمد عبد الحى كيرة».

(٢٤)

وبعد هذا التقديم المشوق يقدم عريان يوسف سعد القصة على نحو ما يتصورها فيقول:

«وإليك تفصيل هذه القضية التى لم تتجاوز أدوار التحقيق، والتى عرفت باسم «مؤامرة قصر النيل».

«أما الشاب الذى قُبض عليه فى المقهى فقد أبلغ البوليس السرى أنه بالاشتراك مع أحمد عبد الحى كيرة طالب الطب، والسيد محمد باشا الطالب بالمعلمين العليا، قد اتفقوا على اغتيال محمد سعيد باشا رئيس مجلس الوزراء، وأنهم اتفقوا على اللقاء فى المقهى فى الساعة الثامنة والنصف حيث يرقبون الكوبرى، فإذا مرت السيارة ألقوا عليها القنبلة التى كانت فى اللفافة بجانبه».

«واتفق الشاب مع البوليس على أن يقبض عليه وعلى (زميليه) وهم متلبسون بالجريمة، على أن يعتبر شاهد ملك، واتفق فى نفس الوقت مع (زميليه) على الموعد».

«وكان المرحوم كيرة نافذ البصر، شديد الحرص، يفحص كل ما يحيط به فى دقة ندر أن تتوافر لأحد، وأقبل نحو المقهى فارتاب فى المخبرين الذين حدثتك عنهم، وأحس أن وجودهم ليس مصادفة، وكان كلما مر بواحد منهم رآه يحدق فيه النظر ثم يتبعه بنظره حتى يصل إلى المخبر الذى يليه، وهكذا، فسار على الكوبرى وكأنه يتنزه، وأفلت إلى منزله دون أن يذهب إلى الموعد على أن يؤجل التنفيذ إلى فرصة أخرى إن لم يكن لوجود أولئك المخبرين صلة به وبأصحابه».

«ولم يكن السيد محمد باشا أقل حذراً من كيرة، فقد ساوره الشك فلم يذهب إلى المقهى، وبالغ فى الحذر فلم يذهب لا إلى المدرسة، ولا إلى المنزل».

«فلما علم بالقبض على كيرة، اختفى فلم يظهر إلا فى روما حيث تابع دراسته وتابع العمل لقضية الوطن مع الطلبة المصريين فى أوروبا».

. . . . . .

(٢٥)

ربما كان من المهم هنا أن نشير إلى أن رواية عريان يوسف سعد قفزت على بعض الأحداث حتى وصلت إلى هروب سيد باشا إلى إيطاليا:

«وحاول الشاب صاحب اللفافة أن يثبت على كيرة تهمة الاتفاق الجنائى، وعلى رغم مساعدة البوليس وجهوده لم يقم دليل واحد على الجريمة، ذلك أن كيرة فى

حرصه الشديد لم يكن يلقى ذلك الشاب إلا منفردين، بل إنه كان لا يمكّن البواب من رؤيته إذا ذهب إلى الشاب فى منزله، فقد استشهد الشاب بالبواب على زيارة كيرة له، لكن البواب لم (يستطع) أن يتعرف عليه، وأنكر أنه رآه إطلاقًا، مما يدل على أن وطنيته منعته من أن يشهد ضد الشاب».

«وانتهى أمر هذه القضية إلى الحفظ، وأفرج عن كيرة بعد سجن دام أربعة أشهر».

«ولكن كشف هذه المؤامرة لم يحل دون أن يلقى طالب أزهرى على سعيد باشا قنبلة فى الإسكندرية لم تصبه بسوء وقبض عليه».

(٢٦)

وننتقل مع عريان يوسف سعد إلى ما يرويه عن حقيقة الدور الذى لعبه هو نفسه فى محاولة اغتيال يوسف وهبة رئيس الوزراء، وهو حريص على أن يحدثنا عن تفصيلات الحوار النفسى الذى عاشته نفسه حين قرر أن يكون هو نفسه بطل هذه العملية، وهو يصل فى هذا التفكير إلى قراره بالحرص على أن يعترف بمشاركته فى الحادثة حتى يظهر مغزاها الحقيقى، بالإضافة إلى الفائدة التى تتحقق من المحاولة نفسها:

«. . . وراجت (شائعة): أن يوسف وهبة باشا (وهو الوزير القبطى فى وزارة محمد سعيد) سيؤلف الوزارة، ولاحقتها (شائعة) أخرى أن البطريرك أرسل إليه وفدًا من أعيان الأقباط يرجوه ألا يقبل الوزارة فى ذلك الظرف العصيب حتى لا يكون قبوله تأليف الوزارة التى تستقبل لجنة ملنر على رغم إرادة الأمة سببًا فى سوء الظن بالأقباط، وإيقاع الفرقة بين العنصرين».

«ولاحقت (الشائعتين) ثالثة: أن يوسف باشا رفض مقابلة الوفد وألف الوزارة، ثم صدر مرسوم تأليف الوزارة برياسة يوسف وهبة».

«ووصلت لجنة ملنر وهاجت البلاد من جديد، وقامت مظاهرات الاحتجاج، وعقدت اجتماعات فى الأزهر والكنيسة الكبرى فى الدرب الواسع، واستشهد خطيب بآية من القرآن: ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** ۝٩﴾ [يوسف: ٩].

«وخشى الناس أن يعتدى على يوسف وهبة باشا كما اعتدى على محمد سعيد باشا فيقال إن المعتدى عليه مسلم إن لم يقبض عليه، وإنه اعتداء الباعث عليه هو الدين، ومن ثم تشوه الحركة الوطنية، وتظهر فيها مسألة الأقلية والأكثرية، وهى بغية الاستعمار، ومحط أمله يتخذ من حماية الأقلية سببًا لبقائه وبقاء الاحتلال».

«حدثتنى نفسى: لقد جاء وقتك».

«ولكن الحديث مخيف كالمغارة الموحشة».

«إن البلاد قادمة على خطر محدق، هذا قبطى يرأس الوزارة والشعب ثائر، والتلغرافات تنهال كل يوم على رياسة الوزارة تطالب باستقالتها، والمظاهرات لا تنقطع تهتف بسقوطها».

«إذا دبر فرع من الفروع الاعتداء عليه وقعت الواقعة وقيل إن المسلمين اعتدوا على رئيس الوزارة لأنه قبطى».

«ولكن لو أننى أيضًا اعتديت عليه، وتمكنت من الهرب لما قيل غير ذلك، إذ لا يقوم دليل على أن المعتدى قبطى».

«إذاً لابد من أن أسلم نفسى بعد الاعتداء، حتى يعلم العالم أن المعتدى ليس من المسلمين».

«ولقيت صديقى ففاتحته فى الأمر وعرضت عليه حديث نفسى، فقال أمهلنى حتى الغد».

«وجاء فى غده يحدثنى عن خطورة الأمر، وكيف أن الموت فيه أمر محقق: إما فى أثناء الحادث على يد الحرس، وإما بحكم الإعدام الذى لاشك فيه».

«قلت: أكنا جادين حين انضممنا إلى هذه الجماعة؟ أم كنا هازلين؟ وإذا كان نطلب للوطن الحرية والاستقلال فما نيل الحرية ولا نيل الاستقلال بالأمر الهين السهل، ولو لم يكن الموت حائلاً بين المستعبدين والحرية، لما كان فى الدنيا مستعبد واحد».

«قال: تدبر الأمر وفكر فيه إلى غد».

«قلت: ما أنا بحاجة إلى تدبر وتفكير، فقد حزمت أمرى منذ أن بدأت الثورة على أن يكون سبيلى فيها سبيل مَنْ لا يعبأ بالحياة، فاذهب وانظر ما نستطيع أن نحصل عليه من سلاح وعد إلىّ غدا به أو بوعد بالحصول عليه فى أمد قريب!».

«قال صاحبى: أما لك فى الدنيا مأرب تبغى الحياة لتحقيقه؟».

«قلت: بلى لى مأرب فى أن أموت فى سبيل الحياة، حياة الوطن، وأنا ميت على كل حال إن لم أمت فى شرخ الشباب فأنا ميت حين تدركنى الشيخوخة، ولكن الوطن حى لن يموت، فيجب أن نعمل نحن الأموات على أن يحيا الوطن الذى لا يموت حياة كريمة. إن الوطن خالد، فلا يحق لنا أن نتركه يخلد فى القيود لكى نحتفظ بأرواحنا إلى حين».

«ذهبت إلى صاحبى فى الصباح فى منزله، وإذا به يقدم لى مسدسين وقنبلة من قنابل الجيش البريطانى اليدوية (ملز)، وهى صغيرة، كالكمثراة الصغيرة».

«كدت أطير من الفرح حين خلوت بصاحبى، ورأيت أنه حقًا متصل باليد السوداء، وأنها ليست كما خفت أن تكون غولاً لا وجود له».

«قلت له بعد أن أطلعنى على طريقة استعمال القنبلة: أليس لدى الجماعة نوع يصنع محليا أشد فتكا من هذه؟».

«قال: هناك نوع آخر لكنه أخطر على حامله، فهذه حتى لو سقطت على الأرض لا تنفجر مادام الحائل بين المفرقعات والكبسولة فى مكانه، وهو لا ينزع إلا عند الاستعمال، أما النوع الآخر فإنه إذا انقلب أو حتى إذا مال ميلاً شديدًا انفجر بعد خمس ثوان، لذلك فإن حامل القنبلة عرضة للنسف إن زلت قدمه أو أساء وضعها».

«قلت: إن الأمر لا يحتمل التفكير فى السلامة، وهى مجازفة محققة النهاية، فلا بأس فى أن تبدأ مبكرة قليلاً، لا بأس فى أن تبدأ المجازفة من وقت حمل القنبلة بدل أن تبدأ وقت إلقائها!».

«لم يبق إلا أن نعرف منزل رئيس الوزراء، ومواعيد خروجه وعودته، والطريق التى يسير فيها ركبه، وجاء صاحبى بالعنوان، إنه يسكن فيلا فى شارع شواربى المتفرع من

قصر النيل، وإنه يخرج الساعة التاسعة، وإن السيارة تسير من شارع شواربى إلى شارع قصر النيل إلى ميدان سليمان باشا، فشارع سليمان باشا، فميدان قصر النيل (الخديو إسماعيل)، فشارع قصر العينى، فشارع الشيخ يوسف (مجلس النواب)، فرياسة الوزارة فى لاظوغلى».

(٢٧)

ونصل إلى التفصيلات التى يرويها عريان يوسف سعد عن واقعة الاعتداء على يوسف وهبة، وكيف قدر له أن يؤدى الدور الذى خطط له بذكاء وقوة، وكيف استعد لهذا الدور بتخطيط جيد، وبمعطف طويل، وكيف عالج جيب هذا المعطف بحيث يحافظ على وضع القنبلتين بلا انفجار، وكيف أجل إفطاره ليكون بمرأى من الناس فى مطعم رئيسى . . . :

« . . . قطعت الطريق بين الدار والوزارة، فوقع اختيارى على ميدان سليمان باشا، لأن قهوة «كافيه ريش» كانت حديقتها تحيط بجزء منه، وهى مكان محترم يستطيع الإنسان أن يجلس فيه وهو آمن، ولأن القادم من شارع قصر النيل يدور حول التمثال فيترك فرصة للتأهب».

«كان صاحبى يقطن منزلاً فى شارع ممتاز المتفرع من شارع السد البرانى فى حى السيدة زينب، واتفقنا على أن يأتينى بمسدسين وقنبلتين (أتسلمها) منه فى المنزل، ثم أخرج (بها) على أن نلتقى فى الميدان».

«أما أنا فأجلس فى حديقة القهوة أشرب الشاب كغيرى من الرواد، وأما هو فيلبس معطفًا قديمًا وجلبابًا وحذاء بغير جورب، ويجلس على أحد المقاعد التى كانت فى ذلك الوقت موضوعة حول التمثال، ووجهه لشارع قصر النيل، فإذا رأى السيارة قادمة وقف وانصرف، تلك هى الإشارة».

«اشتريت معطفًا واقيًا من المطر أستطيع أن أمد يدى من جيبه إلى جيب الجاكتة من فتحة مصنوعة لهذا الغرض، ووضعت المسدسين فى جيبى المعطف، ووضعت القنبلتين فى جيبى الجاكتة، ولكن الجيب كبير ولو تركت القنبلة فيه لانقلبت،

وانفجرت، وإذاً فلابد من أن يقسم الجيب إلى الثلثين والثلث، فالثلثان إذا وضعت القنبلة فيهما لم تمل يمنة ولا يسرة، واشتريت إبرة وخيطًا وتحايلت وصاحبى حتى فصلنا ثلثى الجيب عن بقيته».

. . . . . .

«وفى صبيحة يوم ١٤ ديسمبر بكرت بالذهاب إلى صديقى، فدعانى لتناول الفطور، فاعتذرت وقلت له سأفطر فى القهوة حتى يطمئن مَنْ قد يرانى من المخبرين إلى أنى من عباد الله المسالمين».

«ووضعت المسدس والقنبلتين كلاً فى مكانه، وخرجت بعد أن صافحت صديقى مودعا، فلما وصلت إلى ميدان السيدة زينب ركبت عربة سارت حتى «كافيه ريش» فنزلت وأجزلت للحوذى العطاء حتى لا يتلكأ، وما حاجتى إلى النقود؟!».

«وجلست وناديت الساقى وطلبت ساندوتشًا وشايًا، فلما أحضرهما نقدته الثمن وتركت الباقى له، فانحنى مرات لهذا الشاب الذى يدل عطاؤه، وإن لم يدل مظهره، على أنه من كبار الموسرين».

«وانتظرت وأنا أرقب صاحبى وهو جالس على المقعد، وكان من الرخام، وأرثى له لشدة البرد، ومرت التاسعة والنصف وإذا به ينهض وينصرف».

. . . . . .

«وأخذت القنبلة من جيبى وقلبتها وقذفتها نحو السيارة القادمة».

«وكان السائق أسرع منى فدار بالسيارة حول نفسها ووقف وقفة فجائية، واستقرت القنبلة بجانب العجلة الخلفية وانفجرت، وما كادت تنفجر حتى كانت القنبلة الثانية تنفجر فوق السيارة».

(٢٨)

ولا يبخس عريان يوسف سعد البوليس الملكى حقه فى الاعتراف بنجاحه فى إسراعه بالقبض عليه ومعالجته الموقف بطريقة سريعة وحاسمة:

«سقط الجنديان وموتوسيكلاهما، ونهضا لينضما إلى اثنين قفزا من السيارة وأحاط الجميع بى وكل منهم شاهر مسدسه على رأسى».

«وانضم إليهم رجل كان يجلس بجانب صاحبى، وهو الآخر يصوب مثلهم مسدسه إلىّ، لقد كان من البوليس الملكى، وقد جلس نصف ساعة يتحدث إلى عامل متعطل كان يجلس بجانبه ليستريح من الطواف يبحث عن عمل يرثى لحاجته وهو لا يعلم أنه غريمه، وأنه شريك فى الاعتداء على رئيس الوزارة الذى كان مكلفا بحمايته، وذلك بمراقبة هذا الجزء من الطريق الذى يمر به».

«وانضم إلى هؤلاء جميعًا ضابط أجنبى كان يجلس فى شرفة نادى «ريزوفو» الطليانى الذى كان مقابل «كافيه ريش»، فوضعت يدى خلف ظهرى ووقفت أنتظر».

«قال الضابط: معك إيه؟».

«قلت: مسدسان».

«قال: سلمهما».

«خطر لى خاطر كالبرق، إن أنا وضعت يدى فى جيبى وأخرجت المسدس ربما أطلقوا علىّ النار».

«قلت له: مد يدك وخذهما».

«مد الضابط يده فى جيبى فأخرج مسدسًا، ويده فى الجيب الآخر فأخرج المسدس الثانى».

«لم يستغرق ذلك كله نصف دقيقة».

«والتفت الضابط إلى المخبر الذى كان يجلس على المقعد، وانتهره، والرجل يتمتم معتذرًا يقول لا يكاد يستقيم، فأردت أن أعتذر عنه فقلت: وما الذى يدريه بأن شيئًا سيحدث؟!».

«قال الضابط: وأنت مالك أنت؟!».

«قلت: الحق علىّ.. أنت حر!».

«ودعا الضابط عربة ركبتها وجلس إلى يمينى، وجلس عسكرى البوليس المكلف بحراسة الميدان إلى يسارى».

«وقال الضابط: إذا حاولت الهرب سأطلق عليك الرصاص!».

«قلت: لا تخف! فما أنا بهارب، ولو شئت لحاولت الهرب قبل القبض علىّ».

«وسارت العربة إلى بيت الوزير فأحاط حرسها بنا فسألهم الضابط عن الوزير قالوا: إنه ذهب إلى الوزارة، فسارت العربة بنا إليها».

«كان الخبر قد سبقنا، فقد تجمهر حولنا كثيرون من بعيد ونزلنا من العربة، ودخلت وزارة المالية لأول مرة فى حياتى، وانضم إلى الضابط رجل مديد القامة اسمه على ما أذكر برناردو، وهو عملاق إيطالى من البوليس الملكى».

(٢٩)

ونأتى إلى اللقاء البارد فى عصفه الذى تم بين «القاتل» و«المقتول»! ونتأمل فى محاورة عريان يوسف سعد ليوسف وهبة باشا:

«... صعدنا سلم وزارة المالية الخشبى، وسرنا إلى غرفة مدير المكتب شريف بك صبرى (صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا الآن)، فجلست، وبعد فترة وجيزة قيل إن الوزير يريد أن يرانى».

«قال الضابط: إذا بدرت منك أى حركة وأنت أمام الوزير قتلتك!».

«قلت: أى شىء تخاف الآن؟!».

«قال: لقد أنذرتك!».

«فدخلت قاعة الوزير، وإذا حوله رجال لاشك فى أنهم الوزراء جاءوا يهنئون رئيسهم بالسلامة».

«ابتدرنى الوزير بقوله:

«بتعمل كده ليه يا شاطر؟».

«يا سعادة الباشا أنت خرجت على الأمة، (ولم أكن أعلم أن رئيس الوزراء يخاطب بدولة الباشا)».

«قال: دلوقت يا سعادة الباشا، وفى الشارع كنت عاوز تقتلنى؟!».

«ألست باشا؟ إن أدب الحديث يقضى علىّ أن أخاطبك بلقبك ولست أتملقك!».

«قال: لم فعلت ذلك؟».

«لقد خرجت على الأمة بقبولك تشكيل الوزارة».

«قال: وكيف تحكم بخروجى على الأمة؟».

«أرسل لك البطريرك وفدًا من أعيان الأقباط يطلب إليك ألا تؤلف الوزارة فأبيت مقابلة الوفد، وأرسلت لك كل الهيئات برقيات تطلب إليك التنحى فأبيت، وهذه المظاهرات والإضرابات كلها دليل على أن الأمة غير راضية عن تأليف وزارة بعد أن استقالت الوزارة السابقة احتجاجًا على قدوم لجنة ملنر».

«قال: وما يدريك أننى بقبولى الوزارة لا أعمل ما فيه مصلحة البلاد؟!».

«قلت: لقد ذكرت التلغرافات التى وردت من لندن أن رئيس وزراء إنجلترا أفضى بتصريح فى مجلس العموم عن مهمة لجنة ملنر، قال فيه إن الوزارة المصرية ستعمل على تحقيق الأمانى البريطانية فى مصر، والأمانى البريطانية فى مصر ليست هى الأمانى المصرية!».

«قال: وإذا لم أؤلف أنا الوزارة، أما كان غيرى يؤلفها؟!».

«قلت: كان يكون مصيره القتل مثلك!».

(٣٠)

ويروى عريان يوسف سعد فى بساطة شديدة ما يذكره من وقائع تفتيشه فى ذلك الوقت فيكشف لنا فى صراحة عن جزئيتين مهمتين هما: وقوعه فى الخطأ بنسيانه كشفًا بأسماء زملائه فى جيب بنطلونه، وعن تفكيره السابق فى الانتحار وترتيبه لهذه الخطوة:

«وأمر برناردو بتفتيشى فبدأ الرجل يفتش جيوبى، فأخرج النقود حوالى خمسة جنيهات، وأخرج من جيب البنطلون ورقة ما كاد يفتحها حتى بلل العرق جسمى كله، وكأنه لمح ارتباكى والعرق يتصبب منى فأيقن أنه وضع يده على أعضاء العصابة!».

«عدد الأسماء تسعة عشر اسمًا».

«قال: مَنْ هؤلاء؟».

«قلت: طلبة الطب المقيمون فى شبرا والفجالة والظاهر و(عناوينهم) حتى أدعوهم إذا فشل إضراب المدرسة».

«هز رأسه هزة المنتصر الفائز، لقد تألمت أشد الألم لأنى بإهمالى وإن كان سهوا أراده القدر سأسبب لهؤلاء الزملاء وأهليهم إزعاجًا لا مبرر له، إنهم ولاشك مقبوض عليهم، وستفتش منازلهم، ومَنْ يدرى؟ لعل أحدًا منهم يخفى فى منزله منشورات، وكانت ضالة البوليس المنشودة فى ذلك الوقت، أو سلاحًا فينسب إليه الاشتراك معى، وهيهات أن يبرئه إنكارى وإنكاره، وإن هؤلاء الزملاء سيصيبهم الأذى بسببى، ذلك ما صبب عرقى».

«واستمر برناردو فى تفتيشه فعثر على خزنة مسدس محشوة بالرصاص».

«ثم استمر حتى عثر فى ثنايا السترة على قرص سليمانى ناوله للحكمدار فقال: ما هذا؟».

«قال برناردو: إنه سليمانى».

«قال: لم تحتفظ بهذا؟!».

«قلت: فى ركبتى جرح، وذلك السليمانى أضعه فى الماء لأطهر به».

«والحق أننى كنت أخشى أن يعذبنى البوليس لأعترف، فقلت إن فعل ابتلعت هذا القرص فأريح وأستريح، وأمر الحكمدار بنقلى إلى قسم عابدين حيث ينتظرنى النائب العمومى محمد توفيق رفعت باشا للبدء فى التحقيق».

. . . . . .

يجدر بالذكر أن هذا النائب العمومى محمد توفيق رفعت (باشا) قد أصبح وزيراً بعد هذا وتولى وزارات عديدة فى وزارات عديدة، ثم عين عضواً فى مجمع اللغة العربية ورئيسا له.

(٣١)

وسرعان ما ينتقل عريان يوسف سعد من الحديث عن هذا الدور البطولى الذى أتمه إلى الحديث عن دور آخر لا يقل جسارة ولا بطولة، وهو دوره فى مواجهة السلطات نفسها بمعتقداته التى دفعته إلى القيام بهذا العمل الفدائى الذى قام به، وترينا رواية عريان يوسف لإجاباته فى أثناء التحقيق مدى ما كان يتمتع به من ذكاء وسرعة بديهة:

«جلس النائب العمومى إلى مكتب مأمور القسم، وجلس بجانبه كاتب التحقيق، وجلس إلى جانب المكتب رجلان لم أدر مَنْ هما».

«وشرع النائب العام فى التحقيق بعد أن أملى ديباجة المحضر، وأشار إلى حضور حضرة صاحب المعالى يحيى إبراهيم باشا وزير المعارف، وحضرة صاحب السعادة محمود فخرى باشا محافظ القاهرة».

«وبعد أن سجل اسمى وسنى وصناعتى وسكنى، انتقل إلى الموضوع:

«س: هل ألقيت على دولة رئيس الوزراء قنبلة؟».

«ج: بل قنبلتين».

«س: من أين حصلت على القنبلتين؟».

«ج: اشتريتهما من أجنبى».

«س: أين ذلك الأجنبى؟

«ج: . . . لقيته فى شارع فى الليل، فعرض علىّ مسدسات اشتريت منها اثنين، وعرض علىّ القنابل فاشتريت اثنتين وسار كل فى سبيله».

«س: أتعرفه إذا عرض عليك؟».

«ج، لا، فإن الظلام لم يمكنى من تعرف ملامحه، وكان يخفى شطراً من وجهه تحت قبعته».

«ومال فخرى باشا إلى النائب، فمال النائب إليه ومال إليهما يحيى باشا فتهامسوا بالفرنسية، ثم اعتدل النائب فى مكانه».

«س: ما لون شعر الأجنبى؟».

«هذه إذاً هى ثمرة المداولة، أرادوا أن يحصلوا منى على إجابة عاجلة تظهر كذب قولى ويترتب على ذلك فساد قصة الأجنبى».

«ج: كان الظلام حالكًا ومن المستحيل تبين لون الشعر، وفوق ذلك فقد كانت قبعة الرجل تكسو كل رأسه».

«وحبطت المؤامرة، وبعث فشلها فى نفسى شعوراً بالطمأنية إلى مقدرتى على مواجهة ذلك المحقق الذى كلل شيب التجارب هامته».

«وكانت نتيجة ذلك أن تشجعت ووجهت إليه سؤالا بدل أن يوجه إلىّ سؤاله التالى:

«قلت: هل يستمر التحقيق طويلاً؟».

«قال: طبعًا!».

«قلت: إذاً فليس من المعقول أن أظل واقفًا طوال اليوم، فليسمح لى الباشا بالجلوس».

«نظر إلىّ نظرة طويلة فاحصة، ثم أمر أحد الجنود بإحضار كرسى فجلست، ثم استمر التحقيق فى كيفية إلقاء القنبلة، فلما انتهيت من سرد القصة وجه إلىّ سؤالا فى سرعة خاطفة:»

«ـ مَنْ كان معك عند إلقاء القنبلة؟».

«ـ لا أحد».

«وكان الظهر قد فات بوقت غير قصير، ورأيت أن أدخل فى روع المحقق أننى غير مبال بما أنا فيه، فسألته:

«ـ ألا ينوى الباشا تناول طعام الغداء؟».

«أنا لا أبالى بمواعيد الطعام، وأمامنا شىء كثير لابد من إنجازه».

«قلت: إذاً فإنى أرجو أن تأذن لى بطعام، فإنى جائع».

«وأرسل إلىّ نظرة فاحصة من جديد، وقال: أتشعر برغبة فى الطعام؟ نفسك مش مسدودة؟!».

«قلت: وما الذى يسدها؟».

«قال: هذه الجريمة الخطيرة».

«قلت: وما صلة الجريمة بالجوع، والجوع كافر لا يؤمن إلا بالطعام».

«قال: فماذا تريد أن تأكل؟».

«قلت: أشياء خفيفة كالجبن والزيتون».

«وأمر الباشا بانتقال التحقيق إلى نيابة الاستئناف، وأن يؤتى لى بما أريد من طعام على أن يلحق بنا بعد قليل».

(٢٣)

ويروى عريان يوسف سعد كيف أمكن له بذكائه أن يحصل على موافقة النيابة على أمر مبيته على نحو لائق بدلاً من أن يوضع فى التخشيبة وعذابها، وكيف نجح فى أن يتم هذا الترتيب فى أثناء إجراء التحقيق معه حين تستهدف سلطات التحقيق الحصول على بعض ما يفيدها، وقبل أن يصبح مجرد إنسان غير مرغوب فى الحصول منه على شىء:

«... وأقبل المساء ووابل الأسئلة لا ينقطع، ورأيت أن أحتاط للمبيت حتى لا أقضى الليلة فى التخشيبة، وبرد الليل فى ديسمبر شىء آخر غير برد الليل فى مارس، فقاطعت الباشا متسائلاً:

«أنا طبعًا لن أبيت فى غرفتى الخاصة التى أقطنها؟».

«قال: هذا ليس بحاجة إلى سؤال».

«قلت: وإذاً فلابد لى من مكان أبيت فيه غير التخشيبة، إلا إذا أمرتم بإحضار سريرى وفراشى ووضعهما فيها».

«قال: هذا غير معقول، ولكن فى سجن الاستئناف أسرّة وفراش بأجر إن كانت لك فى السجن نقود».

«قلت: لقد صودر منى نحو خمسة جنيهات، فأرجو إرسالها للسجن على أن يعد لى الفراش، فإننى لا أريد أن أبيت على الأسفلت».

«وأصدر الباشا لأحد الضباط الذين وضعوا تحت تصرف النيابة فى أثناء التحقيق أمره أن يخابر السجن لإجراء اللازم».

«وعاد الضابط بعد قليل يقول: إن أوامر مصلحة السجون تقضى بألا يفتح السجن ليلاً إلا بحضور المأمور، وأن مَنْ يرسلون إلى السجن ليلاً يقضون ليلتهم الأولى دائمًا فى التخشيبة حتى إذا أصبح الصبح أرسلوا إلى السجن».

«ورأيت الباشا لا يهتم بالأمر ويقول: س . . . ».

«إنه يوجه سؤالاً جديدًا، وخرج الضابط من الغرفة».

«قلت: قبل السين والجيم أريد أن أطمئن إلى مبيت».

«قال: لا تضيع الوقت فإن أمامنا تحقيقًا طويلاً».

«ورأيت أن الجو بدأ يكفهر بينى وبين النيابة، ولولا سابق خبرتى بالتخشيبة وشرها لآثرت ألا أثير جدلاً، ولكنى قلت فى نفسى: أنا الغريق فما خوفى من البلل؟!».

«قال الباشا: س . . . ».

«قلت: أرجو ألا توجه إلىّ بعد الآن سؤالاً فإنى لن أجيب!».

«قال: لماذا لا تجيب؟ لابد من أن تجيب حتى يتم التحقيق».

«قلت: أنا لا يهمنى أن يقف التحقيق أو يتقدم! وما إجابتى عن هذه الأسئلة كلها إلا خدمة لسعادتكم حتى تؤدوا واجبكم، فإذا لم أر فيكم استعدادًا طيبًا لتوفير أسباب الراحة فى الأيام القليلة الباقية لى على قيد الحياة فإنى أجد نفسى فى حل من عرقلة

عملكم، وامتناعى عن الإجابة معناه أن التحقيق فى هذه القضية قد أوقف، ولا أظنكم ترضون عن هذا».

«قال: ولكنك ملزم بالإجابة».

«قلت: ما أنا بموظف من موظفى النيابة فأجيب عن أسئلتها لقاء ما أقبض من أجر، ولا إلزام علىّ، ولست أنتظر من التحقيق أن يسفر عن براءة، فإنى معترف بإلقاء القنابل، فإذا لم تجب النيابة طلبى فلن أجيب لها عن سؤال».

«وكان النائب العام رجلاً دمث الخلق، فلم يثره هذا التحدى، واستدعى الضابط من جديد وقال له: أبلغ المأمور بأمرنا أن يفتح السجن الليلة عقب انتهاء التحقيق، وأن يعد للمتهم غرفة وسريراً على حسابه».

«وعادت المياه إلى مجاريها، وعاد إلى السؤال عن أفراد العصابة يحوم حول الموضوع بأسئلة بارعة أجيب عنها بأجوبة متواضعة، ولكن لا مأخذ عليها».

(٣٣)

وعلى نمط ما فعل عريان يوسف سعد من قبل حين رتب أمر مبيته، فقد كان من الذكاء بحيث رتب أمر عشائه أيضًا:

«وعند الساعة الثامنة قلت للباشا: ألا تتناول طعام العشاء؟».

«قال: ومالك ولهذا؟».

«قلت: إذاً فاسمح لى بتناول الطعام، وأرجو أن تكلف أحداً بإحضاره».

«فأمر بإحضار الطعام لحمًا، وخضاراً، وأرزًا كما طلبت منه».

«وبعد العشاء عاد إلى أسئلته وأنا أجيب عنها لا أمتنع ولا أجيب إجابة تغضبه حتى انتصفت الساعة الحادية عشرة، وكأنما يريد أن يستمر فى التحقيق إلى الصباح، قلت للباشا: أظن أن التحقيق لن ينتهى الليلة، ولابد من استئنافه غداً».

«قال: طبعًا».

«قلت: وإذاً فمن الخير أن تستريح استعدادًا للغد».

«قال: أنا لست متعبًا».

«قلت: أما أنا فقد تعبت، وأشعر بحاجة شديدة إلى النوم، وأرجو أن يقف التحقيق عند هذا الحد».

«ورضى الباشا، أمر بأن أرسل إلى السجن، على أن أحضر فى الغد فى الثامنة صباحًا».

«وحييته وانصرفت، أو بعبارة أدق انصرف بى الحرس، وخرجنا من نيابة الاستئناف إلى ميدان باب الخلق إلى المحافظة، فلما طرقنا باب السجن قال الحارس من الداخل: أخبروا المأمور ليحضر فإنه فى انتظار السجين».

«وجلست فى غرفة الضابط النوبتجى حتى جاء المأمور وكان إنجليزيًا».

«وفتح السجن وأعاد الحارس تفتيشى، ثم فتح المأمور باب العنبر بنفسه، وصعد إلى غرفة فى الطابق الثانى وفتح فيه بابًا دخلته وأقفل الباب خلفى».

. . . . . .

«وجاء الحرس يطلبنى للذهاب إلى النيابة، ولكن قبل أن أصحبهم أخذت إلى غرفة المكتب لإجراء اللازم، واللازم هو كتابة اسمى وأعطانى رقمًا كغيرى من المسجونين، وكان ذلك الرقم ٢٠٠».

(٣٤)

وفى ذكاء شديد ينتبه عريان يوسف سعد إلى أن ينبهنا إلى حقيقة مشاعره حين اكتشف أن السجانين وموظفى السجن الذى بات فيه ليلة فى أثناء التحقيق، كانوا مقدرين للدور الذى أداه، وأنهم كانوا يصفونه بالبطولة والفداء والشجاعة والإقدام، بل إن هذا يدفعه إلى الرضا عن النفس، وعما أدته من واجب، ونحن نرى مثل هذا التعبير يتكرر فيما بعد حين عند حديثه عن انطباعات النائب العام والوزراء أيضًا:

«وكان لقاء الموظفين لى مثيراً للشعور، باعثًا فى النفس الشجاعة!».

«أسندوا إلىّ البطولة والفداء، وأسندوا إلىّ الشجاعة والإقدام، فأخجلنى ثناؤهم، أنا شاب عادى وما كان أحد ليوجه إلىّ شيئا من هذا المديح أو يصفنى بهذه الصفات حتى صباح الأمس، وأنا اليوم أنا، لم يهبط عليه من السماء شىء يرفعنى إلى حيث يرفعنى ثناؤهم، ولكن شيئًا واحدًا أخذته من ذلك المديح هو أن الشعب قد رضى عن اعتدائى، وآية ذلك الباشسجان والسجان، وهما من (أدنى) الطبقات، والموظفون ووكيل السجن وهم من الطبقة المتوسطة، وماذا يعنينى بعد هاتين الطبقتين؟ إنهم الأمة المصرية كلها».

«ومع ذلك فإن الطبقة العليا هى الأخرى على ما يبدو غير غاضبة، فالنائب العام والوزراء الذين رأيتهم لم تبدر من واحد منهم كلمة قاسية، إنهم لم يظهروا لى ما أظهر الآخرون من تقدير وإعجاب، ولكنهم لم يظهروا اشمئزازا ولا استنكارا!!».

(٣٥)

ويقدم عريان يوسف سعد صورة بديعة للحوار الذكى الذى قاده مع النائب العام نفسه حين حاول ذلك الرجل القانونى الضليع أن يوقع به، وأن يدفعه إلى التصريح بأسماء أى ممن شاركوه فى هذه العملية الفدائية:

«. . . وكان أول ما سألنى النائب العام إن كنت قد استطعت النوم؟».

«فقلت له: إنى نعمت بالنوم».

«ـ لابد لك من زملاء ساعدوك فى ارتكاب هذا الجرم؟».

«فأقول له: أما أن ما فعلت يُعد جرمًا فلا أوافق عليه، ولابد من تصفية هذه النقطة قبل البحث عن أمر الزملاء».

«فيقول: إنها جريمة من غير شك».

«وأستحلفه بشرفه: ألم يسره نبأ الحادث كمواطن مصرى؟!».

«فيخفى الرجل ابتسامة خلف تجهم وعبوسة، كانت عيناه تحدثان عينى بأنهما كليهما مصطنعان!».

«فقال: أنا لا أسمح لك بتوجيه أسئلة إلىّ!».

«قلت: اتفقنا إذاً مادام كل ما تحتج عليه هو توجيه الأسئلة، وما دمت لم تنف الواقعة موضوع السؤال، وهذا رأيى وظنى بل وعقيدتى، فالنائب العام مصرى قبل أن يكون كبير رجال النيابة، والآن أجيبك عن مسألة الزملاء:

«ج: لا، ليس لى شركاء».

«س: إنه من غير المعقول أن تقوم بجرم خطير كهذا بمفردك، وهذا عمل يحتاج إلى كثيرين».

«ج: أما حاجة العمل إلى كثيرين فمردود بأن من الناس مَنْ هو واحد بألف، وإذاً فمنهم واحد بكثيرين، أى ببضعة أفراد لا بمائة ولا بألف، فلم لا أكون هذا الواحد من زملائى؟!».

(٣٦)

وحين يحاول النائب العام الذكى الأريب أن يوقع عريان يوسف سعد بطريقة ذكية فإن عريان يتمكن من مراوغته بدهاء شديد، وربما تدفعنا خبرتنا بتحليل النصوص إلى الظن بأن عريان يوسف سعد أورد هذا الجزء من مذكراته لنفى أمر شاع عن وقوعه فى شبهة توريط بعض زملائه، أو لنفى اعترافه على بعض هؤلاء، وأيا ما كان الأمر فإن الرواية ترينا صلابة موقف الشبان الوطنيين الفدائيين:

«س: لا يعقل ألا تكون قد فاتحت أحداً بعزمك على اغتيال رئيس الوزراء!».

«ج: إن لك كل الحق فى هذا القول، وقد فاتحت ثلاثة واحداً بعد واحد فسألت كلاً منهم إن كان يستطيع أن يقتل رجلاً، فلما أبوا جميعًا أن يحمل أحدهم على نفسه وزر القتل انصرفت عن مفاتحة الزملاء، وحزمت أمرى وتوكلت على الله وقمت بالعمل بمفردى».

«تهلل وجه النائب العام، وأبشر وأظهر البشر على قسماته».

«قال: مَنْ أول مَنْ فاتحت من الزملاء؟».

«قلت: أود أن أذكر لك أولا أننى عرضت الأمر على كل منهم بما لا يشعره بأن هناك جرمًا أو اعتداء على أحد، وإنى أقرر هذا منذ الآن حتى لا تزعج هؤلاء الثلاثة فى غير موجب، وهم أصدقاء أعزاء وأبرياء أمام القانون».

«قال: مَنْ هم؟»

«قلت: فلانًا وفلانًا وفلانًا».

«ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى كان أولئك الثلاثة قد قبض عليهم وجيء بهم إلى النيابة، فأمر النائب العام بإخراجى وإحضار أولهم».

«وبعد قليل دعيت فقال الباشا: إن زميلك ينكر أنك عرضت عليه شيئًا».

«قلت: أريد أن أعرف السؤال الذى وجهته إليه».

«قال: لقد سألته فأنكر».

«قلت: نعم أنكر، ولكن ماذا؟ لعلك سألته إن كنت أنا عرضت عليه قتل رئيس الوزراء، وهذا لم يحصل وله أن ينكر، ولو أنك سألته عما قلته أنا لك وكيف فاتحته فى الأمر لتذكر».

«قلت للزميل: أتذكر اجتماع المشرحة حين خرجنا مضربين؟».

«قال: أذكر».

«قلت: أتذكر أننا سرنا معا حتى وقفنا أمام بوابة السكة الحديد التى تعترض شارع مدرسة الطب، وأننى سألتك إن كنت تستطيع إذا كان معك مسدس أن تقتل به رجلاً فأجبت بالسلب؟».

«قال الشاب: نعم هذا حصل».

«قلت للباشا: ذلك ما قلته لك، ولعلك أضفت إليه من عندك شيئًا أنكره».

«وجاء كل من الاثنين الآخرين فحدث معهما مثلما حدث مع صاحبهما».

«وخرج الثلاثة وبقيت أمام النائب العام وجهًا لوجه، وقلت له: «لقد حاولت أن أجد زملاء فلم أجد، فلا حيلة لى إذاً إذا قمت بالعمل وحدى».

(٣٧)

وينفرد عريان يوسف سعد برواية أن النائب العام محمد توفيق رفعت باشا عبر له عن عطفه عليه بعد أن وجه له التهمة، وكذلك فعل كل من مساعد النائب العام، وكاتب التحقيق، ولا يفوت عريان يوسف سعد أن يشير إلى أن تحية كاتب التحقيق كانت أعظم وقعًا فى نفسه من تحية الرجلين الكبيرين صاحبى المنصبين العظيمين:

«ومضت عشرة أيام سلك النائب العام ومساعده مصطفى بك حنفى (وكيل وزارة العدل فيما بعد) كل سبيل يؤدى إلى العثور على شركاء، فلم يجدا سبيلاً يصل بهما إلى غايتهما».

«وانتهى التحقيق ووجه إلىّ النائب العام التهمة:

«ـ أنت متهم بالشروع فى قتل حضرة صاحب الدولة يوسف وهبة باشا رئيس مجلس الوزراء عمدًا مع سبق الإصرار والترصد، بإلقاء قنبلتين على سيارته، فما قولك فى هذه التهمة؟».

«ـ إنها تهمة كل ما فيها صحيح!».

«وأقفل التحقيق».

«وهنا اختفى النائب العام وحل محله المصرى الوالد، وقف محمد توفيق رفعت باشا ومد يده إلىّ مصافحًا فصافحته:

«ـ إنى أسأل الله لك السلامة يابنى!».

«ووقف مصطفى حنفى بك ومد يده وصافحنى وكرر تمنيات الباشا».

«ووقف كاتب التحقيق ونظر إلى النائب العام كأنما يطلب إليه منحة، وقال: أستأذن سعادة الباشا فى أن أحييه أنا أيضًا!».

«ومددت إليه يدى فحييته وشددت على يده، وشكرته، لقد كانت تحية أوقع فى نفسى من تحيتى العظيمين».

«إنه كان مجازفًا، فربما أغضب عمله النائب العام، وإذا غضب عليه فأقل أثر للغضب أن ينقله إلى أقصى البلاد».

«وشكرت النائب العام، واعتذرت عما يكون قد بدر منى من ألفاظ ما كان يصح أن تبدر من شاب فى العشرين لشيخ وقور، لولا أن الأمر كان صراعًا بين محقق ومتهم».

(٣٨)

ولا يبخل علينا عريان يوسف سعد بتصوير دور أسرته فى محاولة إنقاذ رقبته وحياته بكل ما هو ممكن من وسائل الدفاع، حتى إن والده حرص على أن يوكل للدفاع عنه محاميًا إنجليزيًا كانت أتعابه باهظة:

«وعدت إلى السجن لأعلم بعد بضعة أيام أن السلطة العسكرية البريطانية قد طلبت أوراق القضية، وأن النيابة أرسلتها إليها، وأننى سأحاكم بمحكمة عسكرية بريطانية عليا، أخطرت بأسماء أعضائها بكتاب أُسأل فيه إن كنت أرد أحدًا من القضاة».

«ولم أرد أحدا لأنهم ضباط كبار فى الجيش البريطانى لم أسمع باسم واحد منهم حتى أقوم بالرد».

«حدد يوم الجمعة ١٦ من يناير ١٩٢٠ للمحاكمة فى سراى وزارة الحقانية، لا فى المحكمة، ولست أدرى الحكمة فى اختيار وزارة العدل لإجراء المحاكمة فيها، ولم يمض يوم على إعلانى بتشكيل المحكمة حتى استدعيت لمقابلة شقيقى الذى حضر لزيارتى».

«أُخذت إلى مكان الزيارة، فرأيت مكانًا عجبًا يقف السجين فى ناحية، وزائره فى الناحية الأخرى، وبينهما حاجزان حديديان فلا يستطيع أحدهما أن تصل يده إلى الآخر».

«حييت أخى ورد التحية، ثم قال: إن أبى قد اتفق مع المستر سيلى المحامى الإنجليزى على الدفاع عنى أمام المحكمة العسكرية البريطانية».

«قلت: أما هذا فمما لا يمكن أبدًا أن أقبله، إذ كيف يدافع عنى محام إنجليزى؟ وكيف أركن أنا إلى دفاعه والخصومة بين المصريين والإنجليز قد بلغت حد إطلاق الرصاص من الجانبين؟».

«قال أخى: إن المحامى يدافع عن موكله بغض النظر عن الجنسية والسياسة، نظير أتعابه، وسيأخذ فى مقابل دفاعه أربعمائة من الجنيهات، ثم إن وهيب دوس بك المحامى قد تطوع للاشتراك معه فى الدفاع عنك».

«قلت: وهذا سبب آخر يحملنى على رفض دفاعه عنى، ولابد من استرداد المبلغ منه، والقضية ليست بحاجة إلى دفاع، وأنا معترف بإلقاء القنابل، ثم إن هذا المبلغ لا أقبل أن أكون سببًا فى خسارته، وعلى ذلك فأنا لا أقبل دفاعًا».

«قال أخى: إن أباك يعتقد أن نجاتك لن تكون إلا على يدى هذا المحامى، فهو كبير المحامين الإنجليز فى مصر، ولابد من أن تقبل دفاعه عنك إرضاء لأبيك، ودفعًا للوساوس عنه».

(٣٩)

وهو يتحدث بتواضع شديد عن عقليته التى أدارت حواره مع المحامين الإنجليزى والمصرى:

«وفى اليوم التالى دعيت لمقابلة المحامى، فلما لقيته وجدت معه شابا مصريا قدم لى نفسه: وهيب دوس المحامى، وقدم لى المستر سيلى، وبعد تبادل التحية بدأ المستر سيلى يسألنى عن ظروف الحادث، فشرحتها له فى إيجاز».

«قال: أريد أن أعرف زملاءك».

«قلت: ليس لى زملاء».

«قال: أنا محاميك ومن صالحك أن تذكر لى كل شىء، وأن تبوح لى بكل شىء حتى أستطيع الدفاع عنك».

«قلت: ليس لدى ما أقوله أكثر مما ثبت فى محاضر التحقيق، فإذا لم تجد فيه مادة للدفاع فإنى آسف».

«وتدخل وهيب بك فذكر لزميله أن المهم هو العدول عن الاعتراف بنية القتل، وأن نثبت أن الموضوع كله لم يقصد به إلا الإرهاب».

«وعدت إلى الاعتراض، لقد قصدت القتل لا الإرهاب، ولن أرجع عما قلته فى هذا الصدد».

«وقال المحامى: إنه لا سبيل له إلى الدفاع إلا إذا قلت للمحكمة إننى قصدت الإرهاب لا القتل ولا الشروع فيه».

«وتدخل وهيب بك مرة أخرى فأقنعنى بأن الحادثة قد وقعت، وأنها سجلت المعنى المقصود منها، وهو أن قبطيًا خرج على إجماع الأمة، وشكل الوزارة فانبرى له قبطى فألقى عليه القنابل، ولا جناح عليك أن تقول إنك قصدت الإرهاب لا القتل».

«واقتنعت بقوله فقلت: إذاً فسأقرر فى المحكمة أن نيتى كانت الإرهاب لا القتل».

«قال المستر سيلى: ولكنك قلت فى التحقيق إنك كنت تريد القتل، وقلت لرئيس الوزراء أمام الوزراء إنك قصدت القتل».

«قلت: دع لى هذا فسأقرر أن إتمام الإرهاب استوجب أن أقرر عند القبض علىّ أننى قصدت القتل، وأن أقول ذلك فى التحقيق حتى لا يذهب أثر القنابل، أما وقد انتهينا إلى ساحة القضاء فلابد من تقرير الواقع».

«قال: اذكر لنا شاهدًا يشهد لك بحسن السيرة».

«فقلت: سأفكر فى شاهد وأبلغك اسمه عن طريق إدارة السجن».

(٤٠)

وعلى القدر نفسه من الدقة المتناهية، والصدق الفنى فى وصف الأحداث يتحدث عريان يوسف سعد عن وقائع يوم محاكمته، وما شهدته هذه المحاكمة من ثباته،

وذكائه، وحسن تصرفه، وقدرته على رسم صورة تحتفظ له بالبطولة العالية حتى إن ساعدت أيضًا على التخفيف عنه:

«. . . وجاء يوم المحاكمة وأقبل فى الصباح ثلاثة من الجنود الإنجليز فوقعوا إيصالاً باستلامى من السجن، وانطلقت بى وبهم عربة السجن يتبعها لورى فيه عدد كبير من الجنود الإنجليز بسلاحهم حتى انتهينا إلى سراى وزارة العدل، وفى ردهة فى الطابق الثانى وجدت صفوفًا من الكراسى أعدت لمَنْ يشهدون المحاكمة، ووجدت منضدة صفت خلفها كراسى أعضاء المحكمة بثيابهم العسكرية، وقد جلس فى وسطهم رجل يرتدى روبا أسود وعلى رأسه شعر أبيض مستعار. . . إنه قاض إنجليزى».

«وجلس فى الصف الأول من الكراسى المعدة للنظارة المدعى العمومى المستر ماكسويل، وقد وضع على رأسه شعرًا مستعارًا كالذى وضعه القاضى، وكذلك وضع المحامى المستر سيلى ذلك الشعر المستعار. إنه تقليد متبع فى المحاكم الإنجليزية».

«وتلا رئيس المحكمة الأمر الذى صدر بتشكيل المحكمة، وأقسم هو والأعضاء اليمين، ثم دعى المترجم فأقسم اليمين، ونوديت أنا ووجهت إلىّ تهمة الشروع فى القتل، وسُئلت إن كنت جانيا أم لا؟».

«ويترتب على الإجابة إن كانت بالسلب أن يعتبر المتهم شاهدًا، ويقسم اليمين، فإن أجاب بالإيجاب اعتبر متهما ولم يقسم».

«قلت: لم أشرع فى القتل».

«قال الرئيس: أجب بنعم أو لا».

«قلت: لا».

«وأقسمت اليمين أن أقول الحق كل الحق، ولا شىء غير الحق».

(٤١)

وهو يتحدث بفخرٍ خفى عن ثباته فى أثناء محاورة النيابة لرئيس الوزراء:

«وبدأت المحكمة فى استعراض الشهود وسماع أقوالهم، فدعى رئيس الوزراء وأقسم اليمين وشهد قائلاً:

«إنه ركب سيارته كالمعتاد، فلما وصل إلى ميدان سليمان باشا وقفت السيارة وسمع دوىّ انفجار، ثم وجد نفسه أمام المنزل، فأمر السائق بالسير إلى الوزارة، وبعد قليل قيل له إن الذى ألقى القنابل عليه قد اعتقل، فطلب رؤيته، فلما رآه سأله إن كان ألقى القنابل، فاعترف».

«قالت المحكمة: هل لو رأيته تعرفه؟».

«قال: نعم».

«وأشار إلىّ».

«وسأله المحامى: أتعرف المتهم من قبل الحادث؟».

«قال: لا».

«س: هل بينك وبينه ما يدعوه للاعتداء عليك؟».

«قال: لا».

«س: هل تعتقد أن الدافع له على إلقاء القنابل عليك قبولك تشكيل الوزارة؟».

«ج: نعم».

«س: هل طلب إليك البطريرك الاعتذار عن تأليف الوزارة؟».

«المحكمة لا توافق على تقديم السؤال».

«وانصرف الشاهد الأول».

«ودعى الشاهد الثانى.. اليوزباشى سليم أفندى زكى (ابن زينهم باشا زكى حكمدار القاهرة)».

«وأقسم الشاهد اليمين وروى القصة، وأضاف إليها أنه صوب إلىّ مسدسًا فأخافنى فقبض علىّ».

(٤٢)

وتنتقل المحكمة بعريان يوسف سعد إلى مرحلة الاستجواب أمامها عن الوقائع التى وردت فى ادعاء النيابة :

« . . . وبدأ استجوابى» .

«ـ أألقيت القنابل؟» .

«ـ نعم» .

«ـ ولماذا ألقيتها؟» .

«ـ لأرهب رئيس الوزراء فيستقيل ، لأن الأمة غير راضية عن تشكيله وزارة تقابل لجنة ملنر ، والأقباط بصفة خاصة يسىء إلى مركزهم كوطنيين مصريين أن يكون الخارج على الإجماع منهم ، ولذلك فقد أرسل البطريرك وفداً من أعيان الأقباط ليقابل يوسف وهبة باشا قبل أن يشكل الوزارة ليثنيه عن عزمه على تأليفها ، فأبى مقابلة الوفد» .

«وبدأ المدعى (النائب العمومى الإنجليزى) يوجه الأسئلة :

«س : أثبت التحليل أن القنبلتين كانتا تحتويان على مادة من أشد المواد انفجاراً ، فهل بمثل هذه القنابل الخطرة أردت الإرهاب لا القتل؟» .

«ج : لم تكن القنابل من الخطر بالدرجة التى تصفها ، وعلى كل حال فإنها لم تحدث ضررا على الإطلاق» .

«س : لو أنك تريد التهديد دون القتل إذاً لانتزعت الرصاص من طلقات المسدسين ، وأطلقت الطلقات الخلو من الرصاص» .

«أتظن أن رئيس الحكومة تخيفه طلقات مسدس فارغة لا يزيد صوتها على فرقعة الموتوسيكلين اللذين يسيران خلف سيارته؟» .

«وضحك الحاضرون ، وضحك أعضاء المحكمة» .

«الرئيس جاداً : لا أسمح لك بالرد بهذه الطريقة التهكمية» .

«المدعى: هناك نوع من القنابل... يحدث انفجاره دويًا ولا شظايا له، فلماذا لم تستعمل قنابل من هذا النوع إن كنت حقيقة تريد الإرهاب لا القتل؟».

«ج: لم أنل شرف التعرف إليك قبل الحادث، ولم أكن أعلم بوجود هذا النوع من القنابل، وإلا لسألتك عنها وأين تباع، واستعملتها».

«وهنا ضحك الحضور وضحك أعضاء المحكمة، وضحك مستر سيلى، وكان ضخم الجثة، فلما اهتز بطنه من كثرة الضحك أضحك اهتزازه المحكمة من جديد».

(٤٣)

ويحدثنا عريان يوسف سعد عن ذكائه فى اختيار الشاهد الإنجليزى الذى شهد له بحسن الأخلاق:

«وجاء شاهد الأخلاق، وهو الشاهد الوحيد فى صفى، وإن كان لا يمكن أن يطلق عليه شاهد نفى، وكان مدرسًا إنجليزيًا فى مدرسة رأس التين الثانوية اخترته لأنه كان رجلاً شديدًا فى المحافظة على النظام، قاسيًا فى توقيع العقوبة حيثما وجد إلى توقيعها سبيلا من إهمال للدرس، أو خروج على النظام».

«وكانت مهمة اختيار شاهد يشهد لى بحسن الخلق مهمة شاقة، لأن اختيار أحد ممن يمتون لى بصلة القرابة لا يجدى لأن شهادته تكون شهادة مغرضة، واختيار أحد المدرسين المصريين معناه وضع مَنْ أختاره فى موقف حرج، فإن شهادته بحسن خلقى ربما أغضبت عليه أولى الحل والعقد، فلم أجد مخرجا من هذا المأزق إلا باختيار مستر بروكسبانك مدرس اللغة الإنجليزية بمدرسة رأس التين الثانوية، وهو على ما وصفته من شدة وصرامة، كانت لى معه أيام الدراسة صلة جعلتنى أظن أنه لن يكون قد نسيها فى مدى عام وبعض عام».

«وكانت صلتى به أننى تزعمت إضرابًا عن دراسة المقرر فى الأدب الإنجليزى، وكان الإضراب موجهًا إلى طريقته فى التدريس، ولجأنا إلى الناظر، وكان - رحمه الله - قاسيًا على الطلاب، شديدًا فى معاملته للخارج على النظام مهما كان خروجه طفيفًا، إلا أن يكون له ما يبرره من مصلحة واضحة».

«وانتهت الشكوى والإضراب بأن عادت المياه إلى مجاريها بتغيير المدرس لخطته بعض التغيير، وتوليت أنا الإصلاح بين الطلبة والمدرس».

«دخل مستر بروكسبانك قاعة المحكمة فحيانى بإحناء الرأس، ورددت تحيته بالوقوف».

«وأدلى بشهادته:»

«س: هل تعرف عريان سعد؟

«ج: نعم».

«س: هل تستطيع أن تذكر لنا ما تعرفه عن خلقه؟».

«ج: خلق حسن».

«فسأله المدعى: كيف تذكره وأنت مدرس يمر بك كل عام مئات التلاميذ؟!».

«ج: أذكره لأنه كان أول الفرقة (والواقع أننى كنت الثانى لا الأول)».

«س (من المدعى): وكيف تحكم بأن خلقه حسن؟».

«ج: هكذا اعتقادى».

(٤٤)

ويلخص عريان يوسف سعد جوهر الاتهام الذى وجهه له مدعى الأحكام على نحو أمين:

«وترافع مدعى الأحكام فوصمنى بكل سيئة، من الصفات، وأظهرنى للمحكمة غولاً خطرًا على الإنسانية يلتهم أجزاءها فى غير تورع، وطالب برأسى حتى يثأر للإنسانية التى اعتديت عليها، وحتى يهدأ روع البرىء الذى حاولت اغتياله، والبرىء الذى لم أحاول بعد اغتياله، وحذر المحكمة من عواقب الأمور إن أخذتها بى رأفة أو شفقة، وأظهر لها فى كثير من الفصاحة مدى انتشار الإجرام، وتهديده لبلاد، لا فى مصر وحدها، ولكن فى العالم أجمع، إن أنا نجوت من الموت الذى أستحقه بعدل،

وأن الجريمة ستنبت فى غير وعى لتأتى على الرطب واليابس إن ترك الغرور بغير رادع، ذلك الغرور الذى دفع هذا الشاب المستهتر الطائش إلى محاولة اغتيال شيخ وقور كل ذنبه أنه قبل أن يخدم بلاده فى ظروفها العصيبة».

(٤٥)

ويصف عريان يوسف سعد فترة الأيام الأربعة التى انقضت بين محاكمته وبين إعلانه بالحكم بأنها كانت أقسى الفترات فى حياته، وهو شعور صادق ودقيق:

«لقد عشت فى ظلال الموت أربعة أيام بلياليها، وظلال الموت باردة مظلمة، زاد تلك الظلال بردًا وظلامًا أن صفق نسر الموت بجناحيه فى أفنية السجن مرتين خلت نفسى فى أولاهما ضحيته، فأحسست الدم فى عروقى باردًا مضطربًا».

«فى صباح الاثنين فتح السجن عند الفجر على غير العادة، وقام المسجونون بتنظيفه قبل الموعد المعتاد، ثم أعيدوا إلى غرفهم».

«وفتح باب السجن بعد قليل، وسمعت وقع أقدام عسكرية كثيرة تصعد السلم وتقترب من غرفتى».

«هذه هى الحالة، وهؤلاء القادمون أقبلوا ليأخذونى إلى غرفة الإعدام، وقد نفذ الحكم فى المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية الإنجليزية دائمًا بعد يومين أو ثلاثة من محاكمتهم، ومن غير أن يسمح لهم برؤية أحد من أهلهم، حتى لا يذاع خبر إعدامهم».

«ولكن لم يفتح باب غرفتى، وفتح الباب الذى يليه».

«لقد كان بجانبى اثنان محكوم عليهما بالإعدام فى قضية قتل منذ بضعة أشهر، وقد حل موعد تنفيذ الحكم فى أولهما».

«وشنق الرجل، وفتح السجن فى الموعد المعتاد».

«وجاء السجان ففتح غرفتى وحيانى، وسألنى إن كنت مريضًا أو لم أنم».

« لماذا؟!» .

«قال : إنك مصفر الوجه!!» .

«لقد ذهب ريح الموت الذى عصف بجارى منذ قليل ، والذى خلته منقضًا علىّ ، لا عليه ، ذهب ريح الموت بما كان فى وجهى من لون تاركًا عليه صفرته!» .

«وتكررت المأساة فى اليوم التالى» .

«وفى عصر ذلك اليوم انهالت عليه التهنئة من السجان ، ثم من الضابط ، ثم من موظفى السجن» .

«لقد أعلن الحكم ، عشرة أعوام أشغال شاقة ، مبروك . . ألف حمد لله على سلامتك» .

(٤٦)

ولا يبخل علينا عريان يوسف سعد بوصف تفصيلات مروعة عن معاملة المسجونين الذين حكم عليهم بأحكام تقتضى تقييد حركة أجسامهم ، وتدفعه ثقته بالنفس ألا ينكر شيئًا مما تعرض له على أيدى السجانين والسلطات :

« . . . ونزلت إلى حوش السجن إلى الحداد الذى يثبت السلاسل فى أرجل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، فوضع فى كل رجل حلقة من الحديد كالخلخال ، ووضع فى كل حلقة طرفًا من طرفى سلسلة طولها متر ونصف المتر ، وأغلق الحلقة بمسمار جعل يضرب رأسه بمطرقة حتى تفلطح ولم يعد يمكن إخراجه ، والحلقتان والسلسلة وزنهما ثلاثة كيلوجرامات» .

«وسألت عن ملابس السجن فقيل لى إنها قميص أزرق وتحته آخر أبيض ، وسروال أزرق وتحته آخر أبيض ، وشىء يشبه «الجرس» من الصوف والقطن ، ولبده» .

«قلت : وحذاء؟» .

«قالوا : لا ، فالحذاء فى طره ويصرف لمن يدفع ثمنه» .

«قلت: ولكنى لا أستطيع السير بغير حذاء، فإما أن تتركونى بملابسى حتى أصل إلى طره، وإما أن أرتدى قبقاب السجن وأحتفظ معها بحذائى حتى يصرف لى غيره».

«واستقر الرأى على أن أحتفظ بثيابى كلها مضافًا إليه الحديد».

«ونقلت إلى سجن قره ميدان (سجن مصر) لأبيت فيه ليلة ريثما أنتقل إلى طره من هناك، لأن المحكوم عليهم يجمعون فى قره ميدان من سائر السجون لينقلوا إلى أبى زعبل إن كان الحكم سبعة أعوام أو أقل، أو إلى طره إن كان الحكم أكثر من سبعة أعوام».

(٤٧)

ولا يغفل عريان يوسف سعد الحديث عمن قابلهم فى سجن قرة ميدان من المسجونين السياسيين ذوى الشأن فى العمل العام

«وفى سجن قره ميدان قابلت بعض المسجونين السياسيين، كان فى المستشفى المرحوم الدكتور محمود بك عبد الرازق من أعيان بندر المنيا وكبار الأطباء فيه، وكان من قادة الحركة هناك، وحكم عليه بسبب الاضطرابات، وهو يقضى مدة سجنه فى المستشفى».

«وهناك محمد أفندى السبع ضابط البوليس».

«وهناج جورج فليبدس مأمور الضبط فى حكمدارية بوليس القاهرة، أو بعبارة أصح حاكم القاهرة العسكرى فى الحرب العالمية الأولى، من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧، حين قبض عليه بتهمة نفى الأبرياء إلى مالطة بحجة اشتغالهم بالسياسة، وأخذ رشوة من الموسرين حتى لا يقبض عليهم بنفس التهمة، وكانت له قضية اهتزت لها البلاد، ولجت فيها الصحافة».

«وهناك رياض الجمل المحامى من قادة ثوار المنيا».

«قابلونى وواسونى، وعجبت لأنى وجدتهم يتتبعون حوادث الثورة والسياسة، فقد كانت الجرائد تهرب إليهم على رغم النظام القائم على منعها، ومن أى كتب أو رسائل عن المسجونين».

«وقضيت الليلة فى قره ميدان، وقدم إلىّ طعام السجن لأول مرة، ولكننى لم أستطع أن أنظر إليه».

(٤٨)

ولا يفوت عريان يوسف سعد أن يشير إشارات ذات مغزى إلى المعاملة الحسنة التى كان بعض ضباط السجون يحرصون على أن يخصوه بها، ومنهم ذلك الضابط الوطنى إبراهيم صفوت الذى أوردنا عدة شهادات إيجابية فى حقه فى كتابنا «فى ضوء القمر»:

«وفى سواد الليل، ولا أدرى فى أى ساعة، فتح باب السجن، وكان السجان قد أحضر لى أربع سجائر بعد أن أوصاه بى زملاؤه وعرفوه بى، فخفت أن يكون فتح باب السجن نذيرًا بتفتيش الغرفة، فألقيت السجائر من الشباك، وأمسكت البطانية وأدرتها فى الغرفة بسرعة لكى يتحرك هواء الغرفة وتختفى رائحة الدخان».

«وجلست أنتظر وإذا باب الغرفة يفتح».

«وقفت».

«وإذا ضابط وملكى يدخلان الغرفة».

«أنا إبراهيم بك صفوت مأمور السجن، وهذا صديق أراد أن يراك».

«ومد كل منهما يده فحيانى».

«وأخرج المرحوم إبراهيم بك صفوت علبة سجائر فخمة فناولنيها فترددت فى أخذها، فقال: خذها وثق بأن كل ضابط فى مصلحة السجون سيبذل لك كل مساعدة، وثق بأنك لن تقضى من هذه السنوات العشر شيئًا فى السجن، وشكرته وانصرف هو وصاحبه».

«وجاء الصباح وحل موعد الترحيل إلى طره».

(٤٩)

ونأتى إلى أفضل ذروة يصل إليها فدائى فى تقديمه لقصته مع التضحية، وهو مشهد

الجماهير المؤمنة به وبعمله وهى ترفع بطلها الفدائى إلى أعلى موضع فى وجدانها حين تحرص على أن تودع بطلها ورمزها فى مظاهرة كبيرة وهو فى طريقه إلى السجن:

«. . . ودهشت حين وصلت إلى محطة باب اللوق، إذ وجدت طلبة الطب جميعًا على رصيف المحطة».

«وكانت مفاجأة لى وللحرس، وهتف الطلبة: لتحيا الحرية! ليحيا الوطن!».

«وانقضوا علىّ يعانقوننى وأعانقهم، وغلبت العبرات بعضهم فسالت حين وجدوا الحديد فى رجلى ويدى».

«وكان قائد الحرس ضابطًا مصريًا، رأى أن العنف لن يسعفه ومعه نفر قليل من الجند، وهؤلاء أكثر من مائة شاب، فتحدث فى رفق ولين ورجا الزملاء أن يعينوه على أداء مهمته».

«وأعطانى زميل منهم (الدكتور حسين عرفان أستاذ الأشعة بكلية الطب، وكان من الدفعة التى دخلت فيها مدرسة الطب سنة ١٩١٨) صورتى، لا كما أخذت لى، ولكنها نسخة للنصف الأعلى وحده، وقال للزملاء: إن صورتك تباع فى كل مكان، ورجانى جاويش الحرس أن أعطيه تلك الصورة لأنها سوف تؤخذ منى على باب السجن، فأعطيتها له».

«ووصل القطار إلى طره، ونزل الزملاء معى يحيطون بى على الرغم من الحرس، ويودعوننى بالقبلات تارة، وبالهتاف أخرى حتى باب طره، وحال باب السجن بينى وبينهم».

* * *